من
تراث الرواد

المسألة الشرقية ومؤتمر باريس
(١٨٥٦)

د. محمد مصطفى صفوت

إعداد

د/ دينا عبدالحميد

سيرة ذاتية مختصرة

للدكتور محمد مصطفى صفوت

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب الإسكندرية

وُلد محمد مصطفى صفوت فى عام ١٩١١ بمحافظة الإسكندرية وتخرج من جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) وسافر إلى لندن فى بعثة للحصول على درجة الدكتوراه، حصل عليها من مدرسة «الدراسات الاقتصادية» فى التاريخ الحديث عن موضوع «تونس والقوى العظمى ١٨٧٨ - ١٨٨١»، وبعد عودته من الخارج عُين مدرسًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليًا) حتى أصبح أُستاذًا فيها، وقد تُوفى فى عام ١٩٦٠ عن عمر يُناهز ٤٩ عامًا.

وقد قدم خلالها إنتاجًا علميًا رفيعًا تناول «السلطان محمد الفتاح ـ فاتح القسطنطينية»، «إنجلترا وقناة السويس»، «الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف القوى الكبرى إزاءه». كما أنه أشرف على العديد من الرسائل العلمية كرسالة الماچستير المقدمة من محمد محمود السروجى «الجيش المصرى فى عصر إسماعيل»، ورسالة جلال الدين يحيى «استيلاء الإيطاليين على طرابلس».. . إلى غير ذلك.

المسألة الشرقية ومؤتمر باريس
(١٨٥٦)

دكتور / محمد مصطفى صفوت

حرب القرم ومؤتمر باريس مرحلة من مراحل المسألة الشرقية، وهنا يجدر بنا أن نتفهم ماهية المسألة الشرقية وتطوراتها. لا نُريد الرجوع إلى الماضى كثيرًا، إلى العصور القديمة أو العصور الوسيطة، بل نكتفى بالرجوع إلى قيام الدولة العثمانية كدولة عظمى تُسيطر على جنوب أوربا الشرقى فى القرن السادس عشر. وطالما كان العثمانيون دولة عظمى أى قوة مهاجمة، وطالما كانت الدولة العثمانية فى دور الفتوح والاتساع لم تكن هناك مسألة شرقية، وإنما كانت المشكلة مشكلة أوربا – مشكلة استطاعة أوربا الوقوف أمام هجمات العثمانيين العنيفة، لقد استطاع العثمانيون القضاء على الإمبراطوريات البلقانية الكبيرة، فقضوا على إمبراطورية الصرب، وإمبراطورية البلغار، ودمروا الدولة البيزنطية، واستولوا على عاصمتها، وجعلوها عاصمة للإسلام، واستولوا على ولايتى الإفلاق والبغدان والقرم، وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية، كما استطاعوا القضاء على دولة المجر، وأصبحت المجر ولاية عثمانية من أهم الولايات العثمانية.

وإنما أخذت مسألة شرقية فى الظهور حين أخذت موجه الفتح التركى فى الانسحاب، وأخذ الاتراك يتقهقرون تدريجيًا من ولاياتهم المتطرفة، وخاصة من أواسط أوربا، فظهر الأمل يقوى بالتدريج فى أوربا فى انسحاب العثمانيين يومًا ما من وسط أوربا وشبة جزيرة البلقان.

لا نُريد هنا الدخول فى الأسباب المتعددة التى دعت إلى ضعف الدولة العثمانية وتقهقر النفوذ العثمانى الإمبراطورى، ولكنا يمكننا أن نُشير إلى انحلال النُظم العثمانية ذاتها منذ القرن السابع عشر، هذه النُظم التى كانت من أسباب القوة العثمانية، فلقد كانت مركزة حول شخصية السلطان إلى حد كبير، ولها

صلة كبيرة بقوته وبطشه، فلما ضعفت شخصيات السلاطين، عادت نُظم الحكم التى كانت قوة للدولة العثمانية نقمة عليها ووقفت عقبة كاداء فى طريق الإصلاح مدة طويلة، وخاصة نظام الرق الذى نشأت على أساسه الهيئة الحاكمة وقوة الجيش العثمانى، فلكى تستطيع الدولة البقاء كان لابد لها من محاولة القضاء على نظام الرق هذا.

فعوامل ضعف الدولة العثمانية ترجع كما هو ظاهر إلى ظروف داخلية، وأخرى خارجية، لا تقل عنها أهمية، ومن أهم العوامل الخارجية ظهور النمسا والروسيا كدولتين حديثتين مهاجمتين متوسعتين، فلقد غدت هاتان الدولتان فى حالة حرب تكاد لا تنقطع مع الدولة العثمانية، حتى استنفذت قوة الدولة العثمانية وحيويتها. هاتان الدولتان فى ظل عائلتىّ الهابسبرج ورومانوف أخذتا فى الظهور والتوسع على حساب ممتلكات الدولة العثمانية فى وسط أوربا، فى حوض الدانوب وعلى حدوده، وعلى سواحل البحر الأسود.

أخذت المسألة الشرقية تظهر بشكل واضح إذن فى القرن الثامن عشر، وأخذت تُظهر القوميات البلقانية المسيحية التى هيأت لها سياسة الدولة " الملِّية " وسائل المحافظة على لغتها وعاداتها وتقاليدها ودينها ونظمها. وأخذت الدول الكبرى الأوربية تتخذ لها مواقف معينة من نمو هذه القوميات: إما مُناصرة لها، أو عاملة على تحديد أطماعها، أو راغبة فى مد نفوذها وسلطانها عليها.

بدأت تثور المسألة الشرقية إذن بشكل واضح فى الربع الأخير للقرن الثامن عشر، حين اضطرت الدولة العثمانية أمام الضغط الروسى والنمساوى إلى الاعتراف بنفوذ الروس فى شمال البحر الأسود، وبسيطرة الهابسبرج على وسط أوربا، ومنذ ذلك لم تُعط الدولة العثمانية فرصة طويلة للاستجمام أو لاستعادة قوتها، ولاقت الدولة من باشاواتها الثائرين عليها أو شبة المستقلين مثلما لاقت من أعدائها التقليديين، من استبعاد لنفوذها وقضاء على سيطرتها وتمزيق لأوصالها.

ولم يُنقذ الدولة حقيقة من عدوتيها الكبريين الروسيا والنمسا أى ظهور روح المنافسة بينهما، فالدولة النمساوية بصفة عامة بعد أن استرجعت المجر من الدولة العثمانية، وأمنت حدودها فى حوض نهر الدانوب من ناحية العثمانيين أخذت تلحظ بعين القلق تقدم النفوذ الروسى فى البحر الأسود، وخاصة فى بولونيا، وأخذت تخشى بعض الشئ صلات الجنس الصقلبى التى تربط بين روسيا وبين شعوب البلقان الصقلبية، وسرعان ما شُغلت بحروبها مع بروسيا ثم مع الثورة الفرنسية ونابليون فى غرب أوربا وفى الميدان الإيطالى، فاضطرت أن تُغادر بصفة عامة سياسة العداء بإزاء الدولة العثمانية.

كما أن الدولة العثمانية شعرت من ناحيتها بحاجتها للإصلاح، وقامت محاولات للإصلاح وخاصة فى نظام الجيش، وكانت هناك محاولات فى القرن الثامن عشر قام بها بعض السلاطين المصلحين، لإصلاح النظام الحربى العثمانى، وعرف محمود الثانى أن الانكشارية التى عزلت سليمًا من قبل وقتلته، هم أعداؤه وأعداء الدولة وأعداء التقدم، فلقد كانوا أكبر عناصر الفوضى فى الدولة ، لفسادهم وسوء نظامهم واستمرار ثوراتهم- لقد أثبتت التجارب أنهم أصبحوا عنصرًا لا قيمة له فى ميدان الحرب، فى الوقت الذى أصبحوا فيه خطرًا كبيرًا على سلام الدولة وأمنها وطمأنينتها. حاولت الانكشارية إشعال الثورة على السلطان المُصلح، ولكنه لم يكن لهم نظام ولا زعماء، قد ملَّ الناس غطرستهم وتكبرهم وغرورهم وانحلالهم حتى رجال الدين أنفسهم رأوا فى القضاء عليهم إنقاذًا للإسلام. ولذا لم يقم أحد سلاحًا، حين أمر السلطان بمهاجمتهم وتدميرهم ومحو اسمهم ونظامهم.

وحلت محلهم العساكر المحمدية، اهتم السلطان بإنشاء جيش جديد قوى، فهو عصب الدولة التى حلت بها الكوارث من كل جانب، وضاعفت المنطقة التى كان للسلطان فيها حكم فعلى، فما كان للسلطان إلا اسم من سلطة فى سوريا أو أرمنية أو العراق أو الموصل أو مصر، وكان باشاوات حلب وعكا وبغداد قد رفعوا

راية الثورة، وحاول محمود بسط سلطانه على بعض الولايات الثائرة، وتم له إخضاع العراق والقضاء على المماليك والانكشارية فيها.

وكان جهد محمود الحقيقى مُركزًا فى إصلاح الجيش، وكان الصعب إيجاد الضباط وتدريبهم، لتفشى الجهل بين الناس، فاستعان محمود بالبروسيين والفرنسيين، وأحرز بعض التقدم فى تنظيم الجيش والبحرية. ولكنه فشل فى اختيار قواد جيشه، ومن هنا كانت هزائمه أمام قوات واليه محمد على. لقد حاول محمود إصلاح نُظم الدولة الأخرى مثل المالية، فحاول إدخال النزاهة والأمانة، وعمل على زيادة موارد الدولة، وخاصة بعد معاهدة أدرنه التى فرض فيها الروس عليه غرامة حربية كبيرة. ووضع نظام الوقف تحت إشراف الدولة . ولكنه اتبع سياسة الاحتكار مما جعل إنجلترا تحتج على هذه السياسة. فإنجلترا فى ذلك الوقت كانت تتبع سياسة حرية التجارة. عندئذ أعاد محمود النظر فى هذه السياسة، وخاصة فى العلاقات التجارية بين دولته وبريطانيا وكان نتيجة ذلك إمضاء اتفاقية أغسطس ١٨٣٨، وبها أُلغيت كل الاحتكارات فى كل ولايات الدولة بما فيها مصر).

عنى ذلك السلطان عناية خاصة بتوكيد علاقاته بالغرب، فحاول تحسين حالة رعاياه المسيحيين، وأعلن نفسه نصيرًا للتسامح، ولكن محمودًا لم يجد له مساعدين مخلصين. ومع ذلك، فإن كان قد فقد مصر وسوريا إلا أنه استطاع أن يسترجع للدولة ابيروس وألبانيا وسيواس وديار بكر والموصل وبغداد.

* * *

لقد تولى السلطان عبد الحميد بعد موت السلطان محمود، ولم تكن له شخصية محمود القوية، ولكنه أظهر كسالفة رغبة فى التجديد والاقتباس من الغرب. فاستدعى رشيدًا من لندن ليكون وزير الخارجية، وليستمر فى سياسة الإصلاح، وكان رشيد من المؤمنين بقيمة الإصلاح السياسى، فهو من الشخصيات العثمانية المتعلمة فى ذلك الوقت المستنيرة كان نزيهًا إذا قيس برجال الدولة

الآخرين، فهو يكره الرشوة ويمقت الفساد، ويرى أنه لا بقاء لتركيا بغير الاقتباس من الغرب – لقد كان رشيد من الساسة الذين أقنعوا محمودًا بالقضاء على سياسة الاحتكار، لكنه كان على نقيض محمود، فهو يعتقد فى النظم النيابية، ولا يُعضد سياسة الاستبداد – لقد كانت الثقة متبادلة فى وقت من الأوقات بينه وبين السفير الإنجليزى Stratford Canning الذى كان يُعضد سياسة الإصلاح فى الدولة بكل قواه.

وصل عبد المجيد إلى العرش وكانت الدولة العثمانية على شفا جرف من الانهيار بعد انهزامها أمام القوات المصرية فى موقعه نزيب، لم يكن لدى السلطان الجديد لا جيش ولا بحرية ولا مال، فلقد دمر الجيش وسلم الأسطول لمحمد على وفرغت خزائن الدولة، ولم يكن منتظرًا تأييد إنجلترا للدولة العثمانية باتباع سياسة إصلاحية.

ولذا ستكون باكورة أعمال السلطان الجديد إصدار مرسوم جلخانه (التنظيمات) مقتبسا من النظم الغربية إلى حد كبير، ولإرضاء أوربا قبل كل شئ. سجلت هذه التنظيمات حقوق الرعية فى الحياة والملكية والمحافظة على الشرف – وقررت المحاكمة قبل الحكم – وحاولت إصلاح النظام القضائى، كما حاولت وضع قانون جنائى، وقررت تنظيم أمر الضرائب، فرضها وحمايتها، كما قررت تنظيم الخدمة العسكرية. وجعلت التجنيد إلى حد ما إجباريًا. واعترفت هذه التنظيمات بمساواة كل الأديان أمام القانون.

وأعلن هذا الإصلاح فى احتفال مشهود، وذكر أن فيه " إحياء الدين والدولة والحكومة والشعب" ولم يقتصر السلطان على ذلك فقد وعد باتباع سياسية تنسجم مع هذا الإصلاح وترفع من شأنه فى الغرب، ولكنه بقيت سلطة السلطان كما كانت فى الماضى اسبدادية. لم يكن لهذا الإصلاح أثر كبير من الناحية الداخلية، ولكن أثره على الناحية الخارجية كان عظيمًا وخاصة فى الدول الصديقة للدولة العثمانية، فرآى فيه بونسبنى، سفير إنجلترا فى القسطنطينية.

"A Victorious answer to those who say, that this Empire cannot be saved by its ancient government."

لقد كان لصدور هذا القانون أثر كبير فى تأييد الدول الأربع لتركيا ضد خطر محمد على الجارف الذى هدد حياة الدولة العثمانية. وحين انتهى الخطر الخارجى، أعاد الرجعيون كرتهم، يدسون للنظام الجديد ويعملون على فشله، وسقط رشيد، ولذا أصبح القانون الجديد إلى حد كبير حبرًا على ورق.

وكان لا مناص بعد سقوط رشيد باشا أن يتولى الوزارة رجال يتصفون بالرجعية، فعاودوا السياسة القديمة الاستبدادية، واضطهدوا المناصرين لحركة الإصلاح، ولكنهم أصروا على ضرورة الإصلاح العسكرى، فلقد خبروا تجربة الثلاثينات، ولذا حاولوا تنفيذ التجنيد الإجبارى فى سنة ١٨٤٣ وأدى ذلك التصميم على الإصلاح العسكرى إلى قيام الثورة فى كثير من جهات الدولة، فزاد تعقد الأمور.

* * *

لم يكن من السهل فى مثل ظروف الدولة العثمانية فى الأربعينات القيام بأية إحصائية دقيقة لسكان الدولة - وكانت حالة الجيش بصفة عامة سيئة، فكان عدد كبير من الجنود لا يصلحون مطلقا للخدمة العسكرية، وكان الكثير منهم يؤخذون من قراهم بالقوة أو من السجون أو من المساجد أثناء تأدية الصلاة، ويؤخذون إلى حيث لا يعرف لهم مصير . لقد بين الإحصاء الذى عمل فى ذلك الوقت أن بالدولة حول أربعة عشر مليونًا من المسلمين. ولم يرد الرجعيون فى ذلك الوقت تجنيد المسيحيين، لشكهم فيهم وعدم الاطمئنان لإخلاصهم للدولة، وقاوم المسيحيون أنفسهم فكرة تجنيدهم، فهم لا يرون التضحية بأنفسهم فى سبيل الدولة، وعلى هذا جندت الدولة المسلمين فقط، وجندت منهم حول ربع مليون جندى، قام بتدريبهم بعض الضباط الألمان. وسار الجيش التركى على أسلوب الجيش المصرى، ولذا تحسنت حاله كثيرًا عن ذى قبل، وأثبت الجيش

التركى بالفعل فى حرب القرم وقبلها فى حروب البلقان كفاية أعظم بكثير من ذى قبل، أعظم مما أظهر فى حرب سنة ١٨٢٨و ١٨٢٩ مع الروس.

كذلك نجحت الدولة إلى حد كبير فى إصلاح البحرية والارتفاع بمستواها، وإن كانت لم تستفد منها استفادة حقيقية فى حرب القرم، فلقد انهارت البحرية العثمانية عند أول صدمة، والواقع أن الدولة العثمانية لم تستفد من قوتها البحرية كثيرًا إبان القرن التاسع عشر، فلقد دُمرت فى نوارين، ودُمرت فى سينوب، ولم تقم بدور كبير يذكر فى حرب سنة ١٨٧٧ .

* * *

لقد عمل إصلاح جلخانه على تدخل أوربا فى صالح الدولة العثمانية ضد محمد على، وكانت نتيجة سياسة الرجعيين قيام الثورة فى البوسنة وفى لبنان.

ففى لبنان قام الصراع حادًا شديدًا بين المارونيين والدروز، فلقد أراد المارونيون تؤيدهم البابوية وفرنسا القضاء على ما للدروز من حقوق إقطاعية على رعاياهم من المارونيين، واغتبط الأتراك لذلك الصراع بين رعاياهم ليكفوا شر الاثنين، وبينوا للدروز أنهم لن يؤيدوا المارونيين ضدهم. لقد كانت الدول الأربع فى تدخلها فى سنة ١٨٤٠ قد وعدت سكان لبنان بحكم خير من الحكم المصرى - ولذا رأت الدول الكاثوليكية بالذات التدخل لحماية المارونيين من الدروز، فسبب الثورة اللبنانية فى نظر بعضهم هو عدم قيام الدولة العثمانية بالتزاماتها وتنفيذ سياسة الإصلاح.

لقد تدخل السفير الإنجليزى ستراتفورد كاننج وممثلوا الدول الأربع لوقف اعتداءات الدروزو على المسيحيين، واقترح ستراتفورد تقسيم الجبل إلى قسمين: منطقة مارونية إلى الشمال، ومنطقة درزية فى الجنوب، وقبل الأتراك ذلك بعد تردد. وبالرغم من ذلك، سار الباب العالى على سياسة استغلال النزاع بين الطائفتين، وتدخلت الدول الأوربية فى ذلك النزاع. فرنسا والنمسا يعطفان على المارونيين ويتصلان بهم، كما حاول الروس الاتصال بالأرثوذكس والدروز، وعملت

إنجلترا كما تقول على حفظ التوازن بين عناصر الجبل وأخيرًا اضطر الأتراك إلى السماح للجبل ببعض الحكم الذاتى. وغادروا فكرة الحكم المباشر واطمأنت الحالة فى لبنان بعض الشئ إلى أن انفجرت الثورة مرة أخرى فى سنة ١٨٥٨ .

وأما فى البوسنة فلقد قامت الثورة فيها فى سنة ١٨٥٣ مباشرة قبل حرب القرم، لقد كان خط جلخانه منقذًا لتركيا من محمد على، ولكنه كان السبب المباشر لقيام الاضطراب فى البوسنة، فلقد كانت أكثر الولايات العثمانية محافظة ومعنى تنفيذ الإصلاح قيام الثورة. كانت الأمور فى هذه الولاية فى يد أرستقراطية إسلامية تمتعت بشئ من الاستقلال عن الأستانة، بحيث كانت سلطة الباب العالى محدودة إلى حد أنه لم تسمح هذه الأرستقراطية للباشا والى السلطان بالإقامة بسراييفو، وكان لهذه الارستقراطية من النبلاء الرجعية اهتمام كبير بالمحافظة على أتباعها وقصورها وحصونها. وأما البقية من السكان فبعضها مسيحى كاثوليكى والبعض أرثوذكسى. وكان هؤلاء المسيحيون يكرهون بنى جنسيتهم من المسلمين أكثر من كرههم للأتراك.

لقد حاول السلطان محمود إدخال شئ من النظام فى هذه البلاد، فوجد معارضة شديدة من الأرستقراطية الصربية الإسلامية. فقامت ثورة على رأسها حسين أغا تُطالب بحرب مقدسة ضد السلطان "الكافر" فى نظرها. وأمتدت الثورة إلى بلغاريا وألبانيا. ولكن حسبنا هذا فشل أخيرًا فى ثورته وهرب إلى النمسا.

وتكرر قيام الثورة حين حاول رشيد باشا استئناف سياسة الإصلاح، وامتدت الثورة إلى جبل الأسود، فأرسل الباب العالى عمر باشا للقضاء على ثورة البوسنة والجبل الأسود، وتمكن عمر باشا وهو من قواد الدولة الممتازين من قمع الثورة فى البوسنة، وهدم كثيرًا من حصون الأرستقراطية بذا انتهى عهد بكوات البوسنة الإقطاعيين ومن هناك تقدم إلى الجبل الأسود، حينئذ تقدمت النمسا بإنذار للباب العالى بأنها لن تسمح بالقضاء على الجبل الأسود وتُطالب بسحب عمر

باشا. وأمام الإنذار النمساوى الذى كانت تُؤيده روسيا، اضطر الباب العالى إلى سحب عمر باشا من الجبل الأسود والبوسنة، فكان هذا إذلالاً لتركيا شجع روسيا فيما بعد على أن تتقدم هى الأخرى بإنذار للباب العالى مما سيكون سببًا فى إثارة حرب القرم.

لقد أخذت الدولة النمساوية تُلقى نظرة طمع إلى البوسنة والهرسك فى حالة ازدياد النفوذ الروسى فى شرقى البلقان. ولذا رأت فى سياسة عمر باشا الإصلاحية القوية ضياع الفرص أمام التدخل النمساوى، وكانت الحكومة النمسوية تعمل على انتهاز الفرصة للانتقام من الدولة العثمانية لإيوائها اللاجئين المجريين، ولذا سارعت إلى الاحتجاج على سياسة عمر باشا، وحين هاجم عمر باشا الجبل الأسود، تقدمت الحكومة النمساوية بإنذارها تطلب عزله تُؤيدها الحكومة الروسية كما ذكرنا.

* * *

وسيكون التدخل الأوربى الأجنبى من عوامل فشل حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية إلى جانب الرجعية-وهناك عوامل أخرى منها الامتيازات الأجنبية والقضاء القنصلى فى الأمور المدنية والجنائية-حقيقة بدئ فى إنشاء محاكم مختلطة فى الآستانة منذ سنة ١٨٤٧، وكان أعضاؤها من الأجانب الذين اشتهروا بالفساد والتحيز، ثم أنشئت محاكم مختلطة أخرى فى زمير وبيروت ودمشق وحلب ، ولم تشتهر هذه المحاكم أبدًا بالعدالة أو النزاهة وازداد تدخل القناصل فى أمور الدولة.

حقيقة قامت محاولات للإصلاح وتكونت لجنة لإصلاح التعليم فى سنة ١٨٤٥، وقررت مرتبات للمدرسين وأخذت الدولة فى إنشاء بضع مدارس ثانوية، وأنشئت مدارس فنية لتخريج الموظفين من مدنيين وعسكريين، وأخذ فى إنشاء جامعة فى سنة ١٨٤٦ فما قامت ثورات سنة ١٨٤٨ الجامحة فى أوربا، واشترك فيها طلبة الجامعات، أوقف إنشاؤها. وفى سنة ١٨٥٠ ألغت الدولة نظام الرق،

وأعادت تنظيم الضرائب، واقتبست من القانون النابليونى قانونها الجنائى، كما وضع قانون تجارى .

ولقد حاول ستراتفورد كاننج السفير الإنجليزى إقناع السلطان بمعاملة المسيحيين على قدم المساواة مع المسلمين، أمام القانون وفى الشهادة، ولكن محاولات ستراتفورد لم تنجح، فلم يمتزج المسيحيون والمسلمون ليكونوا شعبًا واحدًا، وما كان ذلك أمرًا ممكنًا، فلقد رفض ساسة الدولة تجنيد المسيحيين، ولم يكن المسيحيون من ناحيتهم ليقبلوا ذلك النظام بعد أن كانوا معفين منه، وقامت محاولة لإدخال شئ من حسن الإدارة فى الولايات. وأصبح من الممكن نظريًا محاكمة الباشاوات إذا أساؤا التصرف، وتحسن نظام القضاء فى الولايات نسبيًا. لقد وضع رشيد نظامًا من شأنه إنشاء مجلس بجانب كل وال يُمثل الهيئات المختلفة من مسلمين ومسيحيين للاستشارة فى الأمور المحلية، وكان للعناصر التركية بطبيعة الحال أكبر تمثيل فيه، فعملت على حماية مصالحها دون سواها .

وبالرغم من تدخل الدول، وتدخل القناصل فلقد تحسنت نسبيًا أحوال الرعايا المسيحيين فى الدولة، وازدادت ثروتهم لاشتغالهم بالأمور الإنتاجية فى الزراعة والصناعة والتجارة.

* * *

لقد خارت قوى الإصلاح بصفة عامة بعد رشيد أمام تدخل الدول وتدخل القناصل والمحاكم المختلطة والقضاء القنصلى وتغلب العناصر الرجعية، ولم يستطع الشعب التركى أن يُتابع سياسة الإصلاح التى نادى بها رشيد، فلم يكن له من وسيلة للتعبير عن آرائه، إذ يكن هناك تعليم بالمعنى الصحيح، ولم تكن هنا صحافة، فلم يتكون إذن رأى عام تركى يُؤيد سياسة الإصلاح.

وأما الحالة المالية، فازدادت سوءًا على سوء، ولم تجد الدولة من يُقرضها بشروط معقولة، وأخذت الدولة فى التدهور والانحدار، ولم تفد كثيرًا سياسة الإصلاح إلا فى نواح محدودة. ولم تعد تركيا لسياسة الإصلاح مرة أخرى إلا فى

سنة ١٨٥٣ حين اشتد الخطر الخارجى، فأزمة مصر أدت إلى خط جلخانة، وأزمة سنة ١٨٥٤ إلى الخط الهمايونى، وسيكون وراء حركة الإصلاح فى كل من الأزمتين السفير الإنجليزى فى الآستانة ستراتفورد دى ردكلف.

* * *

وأما علاقات الدول العثمانية بروسيا، فبحكم اعتناق الروسيا للمذهب الأرثوذكسى المسيحى الشرقى كانت ترى نفسها وريثة للدولة البيزنطية، ويحلم قياصرتها بذلك اليوم الذى يستطيعون فيه دخول القسطنطينية، وكانت مصالحها الجغرافية والمادية والاستراتيچية تقضى بضرورة تحديد علاقاتها بالدولة التى تُسيطر على المضايق البوسفور والدردنيل، إما عن طريق القضاء عليها، أو السيطرة عليها، أو على الأقل ضمان حرية المرور فى كل الأوقات لسفنها التجارية والحربية وإغلاق هذه الممرات أمام سفن أعداء الروسيا. كانت سياسة الروسيا بصفة عامة فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر العمل على انحلال الدولة العثمانية، وتشجيع شعوبها البلقانية على الاستقلال عنها وانتزاع ما يمكن انتزاعه من ممتلكاتها. لم يكن من سياسة روسيا إعطاء الدولة العثمانية فرصة للاستقرار أو اتخاذ سياسة الإصلاح، فهدف روسيا فى هذه الفترة هو الإسراع بالدولة العثمانية فى طريق الانهيار والدمار. عملت روسيا بلا ريب على توسيع حدودها فى البلقان وفى القوقاز، واستطاعت أن تنجح فى القوقاز. ولكنها أُصيبت بالفشل فى البلقان، فلقد وقفت القوميات الناشئة فى البلقان فى طريقها عقبة كاداء . كان يعترضها فى النفوذ إلى البلقان ولايتا الدانوب الأفلاق والبغدان (ولاشيا وملدافيا) وكانتا تخشيان النفوذ الروسى وتمقتانه.

لقد اهتم القيصر الروسى فى مؤتمر ڤينا ١٨١٥ برفض الفكرة التى قدمت بضمان ممتلكات السلطان العثمانى لتكون له حرية العمل بإزاء الدولة العثمانية وليستطيع اتباع سياسته العدوانية الاستفزازية.

* * *

ويهمنا هنا أن نعرض لعلاقة الدولة العثمانية بالدول الأخرى وبإنجلترا بصفة خاصة، لأن إنجلترا ستضع سياسة تقليدية بإزاء الدولة العثمانية تتبعها مدة طويلة، وعلى موقف إنجلترا يتوقف إلى حد كبير نجاح تركيا فى رد دسائس الدول الأخرى وفى البقاء إلى حين.

اهتمام إنجلترا بتركيا ترجع إلى القرن التاسع عشر، وقبل ذلك القرن كانت إنجلترا أكثر اهتمامًا بصداقة روسيا منها بصداقة الدولة العثمانية إلى أن جاءت وزارة بت، فوجد الوزير الإنجليزى أن فى تقدم روسيا إلى الجنوب خطرًا واضحًا على مصالح إنجلترا السياسية والتجارية.

لقد وجهت الحملة الفرنسية على مصر اهتمام الإنجليز بصداقة تركيا حتى يستطيعون رد غائلة فرنسا ووضع حد لأطماعها فى البحر الأبيض المتوسط والشرق . كانت إنجلترا كما رآى السياسى الإنجليزى فوكس Fox فى وقت من الأوقات ـ إنه إذا لم تستطع المحافظة على سلامة تركيا، فعلى إنجلترا أن تحتل حماية لمصالحها جزيرة كريت وثغر الإسكندرية - نشأت هذه الفكرة حين احتل بونابرت مصر وهدد طريق الهند.

ولكن إنجلترا لم تجد من مصلحتها تقسيم الدولة العثمانية، وأنما المحافظة عليها، وعقدت حلفًا معها ضد الفرنسيين هدفه إخراج قوات فرنسا من مصر، كانت إنجلترا ترى تنمية صداقتها مع الأتراك طوال فترة الحروب النابليونية، وساعد على توطيد العلاقات بين الدولتين اتفاق نابليون مع القصير الروسى فى تلست على مبدأ تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية.

على أن ثورة اليونان ستكون الفرصة فى العشرينات التى ستضع فيها إنجلترا سياستها التقليدية بالنسبة للدولة العثمانية. ثورة اليونان هى التى أثارت أوربا لأهمية المسألة الشرقية، فروسيا تبغى مساعدة اليونان الأرثوذكس، والنمسا كانت تخشى الثورات بجميع أنواعها، وترى أن هدف روسيا هو الاستيلاء على الآستانة. وإنجلترا وفرنسا يخشيان تقدم النفوذ الروسى إلى البحر الأبيض

المتوسط. ولذا سيضع كاننج سياسة إنجلترا بإزاء المسألة الشرقية لقد رفض كاننج فى سنة ١٨٠٧ حين هددت الدولة العثمانية ضمان ممتلكات تركيا، ولكنه وضع مبدأ المحافظة على سلامة الدولة العثمانية، وهذا المبدأ أصبح فى خطر من جراء ثورة اليونانيين.

ربما كان من الممكن إقناع روسيا بعدم التدخل لصالح اليونانيين، لو أن مصر لم تتدخل لمساعدة السلطان فى القضاء على الثورة اليونانية، ولكن تدخل المصريين أثار أوربا إذ كانت تسمع أوربا بالقضاء على الثورة اليونانية، رأت إنجلترا أن تتدخل لمنع روسيا من التدخل وحدها فهذا وحده هو الطريقة المثلى فى نظرها لوضع حد لأطماع روسيا.

وعلى هذا الأساس اتفقت إنجلترا وفرنسا وروسيا على الضغط على الدولة العثمانية ومصر لوقف القتال ومنح الإغريق استقلالاً ذاتيًا، وأرسلت أساطيل الدول الثلاث وكانت موقعه نوارين فى أكتوبر ١٨٢٧ .

فى هذه الأثناء جاء القصير نيكولاس من بعد الإسكندر وهو يصمم على حل المسألة الإغريقية لغير صالح الدولة العثمانية، فيُعلن الحرب على تركيا ، ولم تستطع إنجلترا - وكان يتولى سياستها ولنجتن Wellington ولم يكن سياسيًا من طراز كاننج- منع الروس من إعلان الحرب.

لم تُقدم إنجلترا أية مساعدة للدولة العثمانية، ولذا اضطر السلطان محمود إلى عقد معاهدة أدرنة (٤ سبتمبر ١٨٢٩) مع روسيا أعطى فيها امتيازات لروسيا فى بلاد الشركس وفى وادى الدانوب بحيث أصبحت ولايتا الدانوب ولاشيا وملدانيا تحت رحمتها.

وهنا تتطور مطامع روسيا بالنسبة للدولة العثمانية، ففى عهد كاترين نجد عداء سافر للدولة العثمانية - وفى عهد الإسكندر نجد سياسة حث السلطان على تحسين حال رعاياه المسيحيين، ثم سياسة العمل على القضاء على الدولة العثمانية وإنشاء دول صقلبية وإغريقية مكانها. وأما فى عهد القيصر نيكولاس

فلم تكن سياسته دولية الصبغة وإنما قومية بحتة، ومن بعد هذه الحرب سيكون نيكولاس رأية فيما يختص بالسياسة التى يتبعها بإزاء الدولة العثمانية.

لقد كون نيكولاس لجنة من سبعة لوضع سياسة روسيا تجاه الدولة العثمانية ويهمنا آراء نسلرود Nesselrode وداشكوف Daskov التى سطرت سنة ١٨٢٨. رأت هذه اللجنة أولا أن طرد الأتراك من أوربا سيدعوهم إلى التركز فى آسيا الصغرى حيث يجددون قوتهم، ومن ثم يستطيعون تهديد روسيا والقوقاز. ثانيًا أنه إذا عملت روسيا على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية فازت الدول الكبرى بنصيب كبير منها، وستصير جيرانًا لروسيا بدلاً من تركيا الضعيفة، ولم تستفيد روسيا كثيرًا من إعلان الأستانه مدينة حرة، لأن فرنسا وإنجلترا ستستطيعان النفوذ إلى البحر الأسود.

فيقول نسلرود إن طرد الأتراك من الأستانة وإعادة كنيسة أياصوفيا جميل وسيُخلد التاريخ اسم روسيا، ولكن ما الذى تستفيد روسيا من القضاء على جار ضعيف وإحلال جيران أقوياء وخطرين محله. وبنى على هذا أن ليس من صالح روسيا العمل على سقوط الدولة العثمانية. بل من صالحها المحافظة على الحالة الراهنة فى تركيا، وعدم خلق الظروف التى تنهار فيها. ولذا فسياسة العمل على تقسيم تركيا فيها أخطار جسيمة على روسيا، وعلى هذا الأساس وضعت معاهدة أدرنه، فتمد روسيا نفوذها إلى الصرب وإلى الولايتين الدنوبتين، وربما إلى اليونان. أما العمل على إسقاط الدولة، ففى نظر روسيا يؤدى إلى احتلال النمسا للدانوب ونفوذ أساطيل إنجلترا وفرنسا إلى البحر الأسود.

وعلى هذا الأساس أيضًا بنى القيصر سياسته تجاه اعتداء محمد على على تركيا . فهذا الاعتداء سيُؤدى فى نظر القيصر إلى مواقف معقدة لا قبل لروسيا بها، ورسيا تُفضل بقاء السلطان فى الأستانة على مجئ محمد على إليها.

ولذا كان موقف إنجلترا بإزاء حركة الاستقلال اليونانية إنشاء دولة يونانية قوية لتستطيع الوقوف على قدميها دون الالتجاء إلى معونة روسيا وتم ذلك فى سنة ١٨٣٢ .

وكان مجئ بالمرستون إلى وزارة الخارجية حادثًا مهمًا من حيث سياسة إنجلترا بإزاء الدولة العثمانية. كان بالمرستون أعظم شخصية سياسية إنجليزية منذ عهد كاننج إلى مجئ ديزريلى . فكاننج عقلية ممتازة من حيث السياسة الخارجية، فهو يضع خطط السياسة بعد عناية وتمحيص ونظر إلى المستقبل، وهو الذى وضع أساس السياسة الإنجليزية التقليدية بالنسبة للدولة العثمانية. فهو لا يرى ضمان سلامتها، ولكنه يرى حماية تركيا عن طريق احتلال بعض النقط المهمة، ولكنه عدل بعد ذلك فى سياسته، فتدخل مع روسيا فى المشكلة اليونانية لمنعها من التدخل وحدها.

ولكن بالمرستون بدأ حياته فى إدارة الشئون الخارجية بإعلان ضرورة المحافظة على سلامة تركيا، ويرى ضرورة تأييدها بالقوة ضد روسيا. فكاننج لم يكن مستعدًا إلى حد الدفاع عنها بعكس بالمرستون. كان بالمرستون ذا حيوية وجرأة منقطعة النظير، ولم يكن لديه مانع من استخدام التهديد والوعيد لتنفيذ سياسته. لم يكن بالمرستون رجل مبادئ بقدر ما اهتم بحماية مصالح إنجلترا السياسية والتجارية. وكان يهتم دائما بإرضاء الرأى العام وضمه إلى جانبه فى تنفيذ سياسته. وكان بالمرستون يُشير دائمًا إلى ما لإنجلترا من تفوق بحرى وإلى تصميم إنجلترا على حماية مصالحها بالقوة.

كان بالمرستو يرى أن فى أوربا معسكرين أحدهما يحمى المبادئ الاستبدادية، ويشمل روسيا وبروسيا والنمسا، والآخر يُناصر المبادئ الدستورية وتتزعمه إنجلترا وفرنسا، ووقف بالمرستون صريحًا إلى جانب تأييد المبادئ الدستورية. فى الوقت الذى كان فيه كاننج يرى ضرورة حفظ التوازن بين الجانبين. أما بالمرستون فرآى فى الدول الدستورية حلفاء إنجلترا الطبيعيين، ومن هنا كان عداؤه لروسيا، فهو يمقت سياسة القيصر الروسى وخاصة بعد استخدامها القسوة والعنف فى القضاء على الثورة البولونية.

وفى المسألة الشرقية كان بالمرستون يُفضل بلا ريب التعاون مع فرنسا على

الاتفاق مع روسيا، واهتم اهتمامًا خاصًا بفصل فرنسا عن روسيا. لقد رآى بالمرستون فى المسألة الشرقية أهم مشكلة فى السياسة الدولية لاتصالها بمصر وفرنسا وتركيا وروسيا وإنجلترا، ولما للقوة البحرية من أثر فى معالجتها والبت فى أمرها.

حقيقة أن بالمرستون لم يمنع محمد على من احتلال سوريا، وهذا ربما كان راجعًا إلى أن إنجلترا قد اتخذت ضد فرنسا خطة حاسمة فى بلچيكا والبرتغال وتونس، ولم يكن بالمرستون قد كون بعد رأية النهائى فى محمد على .

لقد أيد بالمرستون الدولة العثمانية من الناحية السياسية لا الحربية، وكان لا يزال يرى ضرورة التعاون مع فرنسا فى المسألة لمصرية، ولكن الذى أزعجه حقيقة وحفزه إلى وضع سياسة حاسمة بالنسبة لمصر ومحمد على، هو الخطر الروسى، فلقد تدخل القيصر نيكولاس لنجدة السلطان ضد محمد على بعد موقعة قونية وعقد معاهدة انكيار سكلى.

تفوق النفوذ الروسى إذن فى القسطنطينية فى سنة ١٨٣٣، وقدمت حملة روسية إلى البوسفور عسكرت على الشاطئ الأسيوية لحماية السلطان من واليه الثائر.

فسنة ١٨٣٣، سنة مهمة إذن لأنه فيها سيطرت الروسيا للمرة الأولى والأخيرة على القسطنطينية، لقد ذهب خطر محمد على مؤقتًا ، وبقى خطر الروس. وبالغ بالمرستون فى هذا الخطر أو خُيِّل له أن ذلك الخطر أعظم مما هو، فلقد ظل نيكولاس مخلصًا لسياسته التى استنها بمد درس وبحث، وهى أنه خير للروسيا أن يكون لها جار ضعيف، ولكن القيصر لم يكف عن العطف على العناصر المسيحية فى الدولة، هذه الدولة الآخذة فى الانحلال فهو يقول:

"I have no power to give life ta the dead, and the Turkish empire is dead l have no eonfidence in this old body preserving life, it is in dissolution from all sides"

كان هذا رأى القيصر الشخصى، ولكنه كان عليه أن يسير على السياسة التى

وضعت. أعلن القيصر أنه لم يعد يسير على سياسة كاترين الثانية، ولكنه سيعمل بقدر الإمكان على المحافظة على الدولة العثمانية، ولكن إذا حدث وانهارت الدولة العثمانية، يجب أن تعد روسيا للمستقبل ، وخاصة أمام ما اعتقده دسائس إنجلترا وفرنسا فى الأستانه. كان نيكولاس يود كل جهده منع التدخل الإنجليزى الفرنسى فى شئون تركيا، وكان يكره اجتماع المؤتمرات الأوربية للنظر فى المسائل العثمانية، ويرى لو اقتصرت هذه الاجتماعات على الروسيا والنمسا والمجر.

وكما احتج بالمرستون على معاهدة انكيار سكلسى، فهو يعترض على سياسة محمد على فى فرض المطالب المصرية بالقوة على تركيا، فبالمرستون كان يعتقد فى قيمة الدساتير وفى الملكية الخاصة والتجارة الحرة والتطوع فى الجندية، وكل هذه الأشياء لم يكن يؤمن بها محمد على، فهو معضد لسياسة الاستبداد والاحتكارات وحماية التجارة والتجنيد الإجبارى. لا عجب إذن إذا حدث الاصطدام بين الرجلين وخاصة وأن بالمرستون لم يكن يرى فى محمد على أكثر من

"An ignorant barbarian who by cunning and boldness and mother-wit has been successful in rebellion.(a) greattyrant and oppressor as ever made a people wretched."

وساعد بالمرستون على تنفيذ سياسته بالنسبة للمسألة المصرية فى سنة ١٨٣٩ أن محمد على لم يكن يستطيع التنازل عما أخذ، والسلطان يُريد الانتقام واستعادة ممتلكاته. ولقد بين بالمرستون لمحمد على بكل صراحة أن إنجلترا ستقف ضده إذا عمل محمد على تنفيذ رغباته وقامت حرب بينه وبين تركيا، وأن الموقف الدولى الأوربى ليس فى صالحه.

كان الدافع الأكبر لبالمرستون فى الأزمة المصرية هو مصالح إنجلترا فى الشرق، وفكرة التوازن الدولى فى الغرب. ولم تكن تخدعه تصريحات روسيا، فهو يعتقد أنها تسعى للتوسع نحو الجنوب، ويرى أنها تُحيك الدسائس فى تركستان

وفارس، وهو يخشى أن يمتد نشاطها إلى الهند، ولذا فهو حريص على منع الاتصال المباشر بين روسيا ومحمد على، ويرى منع الروسيا من التوسع نحو الجنوب ومنع محمد على من إقامة إمبراطورية عربية تتوسع ناحية الشرق والشمال.

وحين أرسل القيصر قواته الحربية والبحرية لحماية الدولة لم تكن لديه فكرة احتلال دائم أو ضم جزء من أجزاء الدولة لروسيا وإنما كانت تعليماته لأورلوف Orlov إقناع الباب العالى بقبول تحالف روسى تركى دفاعى. وتم ذلك فى معاهدة انكيار سكلسى (٨ يوليو ١٨٣٣).

رأت إنجلترا فى معاهدة انكيار سكلسى خطرًا كبير على تركيا، وبالتالى على مصالح إنجلترا فى حالة فتح البوسفور للسفن الروسية وإغلاق الدردنيل أمام سفن الدول الأخرى. وكانت إنجلترا تخشى أن تكون هناك مواد أخرى سرية تسمح للسفن الروسية بالوصول إلى البحر المتوسط. وكان يُشارك إنجلترا فى ذلك الموقف فرنسا بالرغم من إنكار نسلرود لأى مواد من هذا النوع . وكان الباب العالى نفسه يعمل على خلق جو من الشك للاستفادة من النزاع القائم بين الدول الأوربية.

ولقد احتجت بالفعل إنجلترا وفرنسا على هذه المعاهدة التى كانت تعتقد فيها الدولتان تدميرًا لاستقلال تركيا وبسطًا لحماية روسيا عليها. رأى بالمرستون بالذات أن صداقة روسيا لتركيا أخطر بكثير من عداوة محمد على للباب العالى، وعلى أى حال هو يُفضل أن يرى فى الأستانة السلطان لا محمد على ولا نيكولاس.

ولذا فبالمستون أو على وجه أعم إنجلترا ستقف بالمرصاد أمام كل محاولة من شأنها تقسيم الدولة العثمانية أو فرض حماية عليها سواء أكانت هذه المحاولة من جانب روسيا أو من ناحية محمد على.

ومنذ الوقت الذى عقدت فيه روسيا معاهدة انكيار سكلسى زاد حقد

بالمرستون عل روسيا وزاد شكه فى سياستها فهى دولة فى نظره.

A power strong enough to be formidable, but notoostrong to be resisted, still more ambrtious than strong and not less wily than ambitious.

وكان سفير بالمرستون فى القسطنطينية فى الثلاثينات وهو بنسونى Ponsoby أكثر شكا منه فى سياسة روسيا، ولقد أيد الرأى العام الإنجليز سياسة هذين الرجلين إلى حد كبير وأعلنت كثير من الصحف فى إنجلترا روسيا

"as an able treacherous, corrupt, ambitious and extra ordinarily dangerous power".

ولقد أكد بالمرستون سياسته فى أكثر من موقف فهو يقول

"The maintenance of the Turrish Empxe ought tobe the basis of our policy".

فهو يرى فى بقاء الدولة العثمانية ضرورة لحفظ التوازن الدولى فى أوربا للمحافظة على استقلال النمسا وبروسيا نفسيهما لأنه لا يمكن القضاء على الدولة العثمانية إلا بحرب عامة تخوض غمارها كل دول أوربا.

ولم تكن صداقة روسيا لإنجلترا فى سنة ١٨٣٩ لتعنى أن إنجلترا تخلت عن سياستها وإنما الذى حدث أن روسيا فى هذه السنة حاولت العمل على مجاملة إنجلترا وتأييدها فى سياستها فى وقف محمد على عند حده. هذا فى الوقت الذى تخلت فيه فرنسا عن إنجلترا وأيدت مطالب محمد على الاستقلالية.

لقد أرسلت روسيا بعثة برونو Brunnow (سبتمبر ١٨٣٩) للعمل على تحسين العلاقات الإنجليزية الروسية على أساس الاتفاق على الخطوات التى تتخذ ضد محمد على، وعلى أساس موافقة روسيا على إلغاء معاهدة انكيار سكلسى - اعترفت إنجلترا وروسيا بأن السلطان هو وحده "Master a guatdian of the two Straits" واتفقتا على اعتبار البحر الأسود وبحر مرمره بحارا مقفلة وعلى احترام مبدأ المحافظة على الإمبراطورية العثمانية وسلامتها.

لقد حاول بالمرستون ضم فرنسا إلى مشروعه فى حل الأزمة المصرية

التركية، ولكن فرنسا رفضت إلا استقلال محمد على، فرأى بالمرستون أن الحل هو فى استخدام القوة ضد محمد على، وعقدت معاهدة لندن اشتركت فيها إنجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا للضغط على محمد على وإرغامه ووكل إلى إنجلترا والنمسا أمر اتخاذ الإجراءات التنفيذية لأرغام والى مصر. ولما رفض محمد على عروض الدول الأربع لجأ بالمرستون إلى استخدام القوة ، فأرسلت التعليمات إلى قوى إنجلترا البحرية برياسة Stopford لقطع المواصلات البحرية والبرية بين مصر وسوريا. وأرسل تعليمات إلى بونسبى سفيره فى الأستانة بإشعال نار الثورة ضد محمد على فى الشام وقطع قناصل الدول الأربع فى مصر علاقاتهم السياسية وغادروا مصر.

ولم تقلق الضجة الكبيرة التى قامت فى فرنسا بالمرستون طالما كانت روسيا مؤيدة لسياسته فكل ما كان يهمه فى هذا الوقت هو عزل فرنسا من الناحية السياسية. وإن كان مستعداً لاستصلاحها بجعل مصر وراثية فى أسرة محمد على. وفى ١٦ يناير ١٨٤١ وصلت بالمرستون أخبار من ستبفورد بخضوع محمد على، وبذا فرض بالمرستون سياسته على محمد على بأن اتخذ من سياسة الدول الثلاث روسيا والنمسا وبروسيا مطية له. واستطاع فى نفس الوقت إلغاء معاهدة انكيار سكلسى من الناحية الفعلية. ثم تمكن من إقناع الدول الأربع ومعها فرنسا بإمضاء اتفاقية المضايق The Straits bonvenlion فى ١٣ يوليو سنة ١٨٤١ .

ولقد أكدت اتفاقية المضايق حقوق روسيا كما تذكرها معاهدتا كينارجى وأكرمان، ولكن أُلغيت فى نظير ذلك شروط اتفاقية انكيار سكلسى، وبذا أصبحت تركيا تحت حماية الدول الكبرى لا تحت حماية روسيا وحدها- أغلقت اتفاقية المضايق أمام السفن الحربية، وتعهدت الدول باحترام هذه الاتفاقية.

* * *

وقبل تتبع المسألة الشرقية فى عهد القيصر نيكولاس يحسن أن نعرف ماذا كانت عليه الحالة فى روسيا لنستطيع مقارنتها بحالة الدولة العثمانية.

لقد حكم نيكولاس روسيا مدة ثلاثين عامًا بالقسوة والعنف والسيف، فلقد كانت تدور فى خلده دائما ذكريات الثورة الفرنسية وما تم فيها من القضاء على الملكية والأرستقراطية، كان نيقولاس يؤمن قبل كل شئ بنظرية التفويض الإلهى للملوك ويرى الأخذ بناصر الملكية والارستقراطية لا فى روسيا وحدها بل فى كل أجزاء أوربا. كان نيكولاس محدود العقلية والتعليم فلم يسمح بحرية التفكير أو النقد، وكان عهده عهد حكم البوليس السياسى فى روسيا. كانت تهمه أطماعه قبل كل شئ فهو مستعد أن يُضحى فى سبيلها بكل شئ فى روسيا بالشعب والجيش، كما ظهر فى حرب القرم.

كانت مُثُل نيكولاس الأتوقراطية أولاً ثم الأرثوذكسية ثم القومية الروسية التى فهم منها قبل كل شئ تميز روسيا عن غرب أوربا.

حاول نيكولاس سياسة الإصلاح على طريقته الخاصة، فحاول إنقاذ روسيا من الفوضى، فلم يكن فيها قانون حقيقى، ومن نظام رق الأرض، فجمعت فى عهده القوانين الكثيرة المتناقضة فى قانون موحد أكثر من ذى قبل وعدل وأضيف إليه. ولكن الإصلاح فى النواحى الجنائية كان غير كاف مما شجع الفساد والرشوة، وزاد الحالة سوءًا عدم كفاية مرتبات الموظفين والقضاة، ولقد وضعت بعض إصلاحات فى نظام البوليس حتى يتلاءم وحاجة القيصر، وأما الجيش فكان الاهتمام فيه قائمًا على التدريب الشكلى، ولكنه لم يوجه عناية إلى التسلح أو رفع مستوى الجندى، بالرغم من أن نيكولاس كان ينفق على الجيش حول ٤٠٪ من ميزانية الدولة.

ولم تكن مالية روسيا فى مستوى تحسد عليه. فعبء الضرائب والتجنيد كان فى الواقع واقعًا على كاهل الطبقات الفقيرة، وكانت الحكومة تلجأ فى كثير من الأحيان عند عجز الإيرادات إلى عقد قروض محليه ثم لا تتورع أن تلغى هذه القروض دون أى تعويض للدائنين.

لم تُحاول الحكومة الروسية القيام بأى إصلاح لنظام الضرائب واتبعته فى

بعض الأحيان سياسة الاقتصاد إلى حد عدم القيام بمشروعات خطوط السكك الحديدية المهمة، ولذا فلم ينشأ خط حديدى بين موسكو وبطرسبرج إلا فى سنة ١٨٥١، ولكنه بالرغم من ذلك فلقد أخذت روسيا تدخل مرحلة التصنيع فتحولت موسكو إلى مدينة صناعية.

وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تتمتع فى عهد نيقولاس بنفوذ كبير وأخذت فى محاربة الأديان والمذاهب المسيحية الأخرى والقضاء على الإلحاد. ولقد أهملت دراسة الفلسفة والأخلاق على أساس أن الدين المسيحى كاف لتوجيه الطلبة. ولاهتمام نيكولاس بفكرة الجامعة الصقلبية عنى بتشجيع دراسة التاريخ واللغات الصقلبية، ونظمت الرقابة على الفكر تنظيمًا دقيقًا، ونفى الناس تباعًا إلى سيبريا لمجرد الشك. دون محاكمة ليعملوا فى المناجم فى ظروف غير إنسانية. وحرم على الباحثين فى العلوم الطبيعية دراسة بعض أجزاء جسم الإنسان، كما حرم على الصحف نشر أخبار المخترعات وكُونت اللجان المختلفة لمراقبة الرقابة نفسها، فانتشر الخوف والشك فى كل ربوع روسيا ووصلت الرقابة إلى حد مراقبة المؤلفات الموسيقية حتى لا تكون رموزًا لأشياء لا ترضاها الحكومة.

وأما رقيق الأرض فكان فى سنة ١٨٣٨ يكون ٤٤٪ من السكان وكان عليهم عبء التجنيد وعبء الضرائب، فقاموا بثورات متعددة استمرت طوال عهد نيكولاس تقريبًا، ولم تأخذ الحكومة أية خطوة جدية لتحرير العدد الأكبر من السكان وإن كانت قد وضعت إصلاحات على الورق لم تنفذ، ولم تكن حال العمال بأحسن حالاً، فكانت المصانع إما ملكًا للنبلاء أو الدولة ، وكانت الحكومة تأخذ إنتاج المصانع وتضع الضرائب الجمركية العالية لحماية ذلك الإنتاج، وكما كان الفلاح مرتبطًا بالأرض مدى حياته. كان العامل مرتبطًا بالمصنع لا يسمح له بترك الخدمة فيه مدى حياته أيضًا.

وكان أصحاب المصانع يشترون ما يلزمهم من العمال من أرستقراطية الإقطاعات، وذلك إلى سنة ١٨١٦، ومن بعد هذا التاريخ عمل فى المصانع عدد

كبير من الشحاذين والجنود والمجرمين وأسرى الحرب والأطفال، كما أن زوجات الجنود كانوا فى كثير من الأحيان يُرسلون إلى المصانع. وكانت الدولة مسئولة نظريًا عن تحديد الأجور وساعات العمل وظروفه.

ولكنه من الناحية الفعلية . اقتصر اهتمام الحكومة على أصحاب المصانع ولذا تعددت الإضرابات، وكان السبب الأساسى للإضراب ضآلة الأجور وكثرة ساعات العمل. لقد كان نظام الرق فى الأرض والمصنع العقبة الكبرى فى سبيل تقدم روسيا فى ذلك الوقت.

ولم تكن حال روسيا من الناحية الحضارية والإنسانية أحسن من حال الدولة العثمانية، ومع ذلك فقد استطاعت التوسع الخارجى فى الوقت الذى أخذت فيه الدولة العثمانية فى الانكماش. توسعت روسيا ناحية الشرق والجنوب، توسعت فى سيبيريا إلى أن وصلت إلى المحيط الهادى، على أن التوسع الحقيقى كان بعد حرب القرم. وأما فى آسيا الوسطى فلقد أخذ النفوذ الروسى يتغلغل فيها منذ أواخر العشرينات للقرن التاسع عشر.

* * *

وللعودة إلى المسألة الشرقية من حيث العلاقات بين الدول الكبرى نقول إن القيصر نيكولاس كان مغتبطا باتفاقه مع إنجلترا فى أزمة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ ضد محمد على، فالانتصار على محمد على كان انتصار على فرنسا التى كانت تُمثل فى نظر القيصر كل ما يكره فلقد طردت فرنسا الملك صاحب الحق الشرعى شارل العاشر، ووضعت محله فيليب الذى أعلن وزراؤه العطف على الأمانى البولونية- كانت فرنسا تمثل الثورة، ولذا رآى القيصر واجبًا عليه الوقوف أمامها بالاتفاق مع إنجلترا. وبالاتفاق مع إنجلترا يمكن للقيصر الوقوف أمام الثورات التى تثيرها فرنسا فى أوربا.

كان القصير يود لو استطاع عقد حلف " مقدس" مع إنجلترا ضد فرنسا وضد الثورة، ولكن إنجلترا بينت له أن برلمانها لا يقر مثل هذه المحالفات. وعدل

نيكولاس مطلبه بعقد اتفاق مع إنجلترا ضد فرنسا، إذا قام الفرنسيون بحرب ثورية - ولكن رد بالمرستون كان صريحًا بأن إنجلترا لا يمكنها اتباعا للخطة التى وضعها كاننج - التدخل فى شئون الدول الداخلية إلا إذا عملت هذه الدول على الإخلال بالتوازن الدولى. وأضاف بالمرستون إلى أن الحكومة الإنجليزية لا تستطيع إقرار تفاهم سرى لا يعرف عنه البرلمان شيئًا.

حاول نيكولاس ذلك الأمر مع إنجلترا مرتين أخريين أو ثلاث، المرة الثانية كانت فى سنة ١٨٤٤ مع لورد ابردين Aberdeen، حين زار القيصر إنجلترا وأدخل عنصر المسألة الشرقية، فبين" أن إنجلترا وروسيا لهما مصلحة فى المحافظة على الحالة الراهنة فى تركيا، فى استقلالها وفى حماية ممتلكاتها، ولكنه من الصعب إقناع الحكومة التركية بحسن معاملة رعاياها المسيحيين إلا إذا اتفقت الدول، وأن الدولة العثمانية تحوى كثيرًا من عناصر الانحلال، وأنه ممكن التعجيل بسقوطها، ومن هنا كان على الدولتين التفاهم والاتفاق إذا حلت الكارثة".

وهكذا وضحت مذكرة المستشار الروسى نسلرود، ولم يجد أبردين مانعًا من قبول هذه المذكرة وخاصة وأن النمسا وروسيا قد وافقتا عليها فى منشنجراتس Münchengrâtz. ولو أن أبردين قبل فكرة القيصر إلا أن موقف إنجلترا كان فيه شئ كبير من الحيطة، فإنجلترا لم تكن تعتقد فى ذلك الوقت أن الدولة العثمانية على وشك السقوط - ولم ترد تبادل الآراء فى هذا الموضوع، وفى الواقع لم تعرض مذكرة نسلرود لا على مجلس الوزراء ولا على البرلمان.

وحين جاء بالمرستون إلى وزارة الخارجية فى ١٨٤٦ لم يكن مستعدًا لقبول مثل هذه الأفكار الروسية، بالرغم من محاولته توطيد الصداقة بينه وبين الحكومة الروسية. وإن لم يكن كذلك موافقا على تدخل الروس فى ولايتى الدانوب ولا على تأييد الروس للنمساويين فى مسألة اللاجئين المجريين والبولونيين، بل بيَّن لروسيا وللنمسا بأنه سيُؤيد تركيا فى رفضها للإنذار الذى قدمتاه - الأمر الذى أدى إلى انتهاء هذه الأزمة بسلام.

كان بالمرستون يسعى دائما إلى إقناع الأتراك بالاستمرار فى سياسة الإصلاح، واستمرت علاقة بروسيا ودية بعد انتهاء الأزمة سنة ١٨٤٩ وإن كان قد أخذ يعود إليه شكه فى سياسة القيصر الروسى، وفرح الروس كثيرًا لسقوطه فى سنة ١٨٥١، وتنفسوا الصعداء، فالسفير الروسى فى الأستانة برنو Brunnow كان يرى فيه عدوًا كبيرًا لروسيا ومُقلقًا للسلام الأوربى ومثيرًا للاضطرابات الثورية، وازداد التقارب بين روسيا وإنجلترا فى سنة ١٨٥٢ولم يسئ النزاع على الأراضى المقدسة إلى العلاقات الإنجليزية الروسية وإن كان قد أساء كثيرًا إلى العلاقات الروسية الفرنسية- حاول القيصر جاهدًا توكيد علاقاته بإنجلترا وعزل فرنسا من الناحية السياسة.

ولذا حاول القيصر محاولته الثالثة مع إنجلترا فأخذ على عكس نصيحة نسلرود له الاتصال بالساسة الإنجليز من أمثال أبردين وسيمور. وخاصة وأن القيصر لم يكن مدربًا على فن المفاوضة والسياسة.

ولذا فهو فى حفلة استقبال فى ٩ يناير سنة ١٨٥٣ يبدأ حديثه المشهور مع ممثل إنجلترا Seymour وطلب إليه حمله إلى أبردين ورسل Russell . عبر عن رغبته فى توكيد علاقات الصداقة مع إنجلترا . ولم يتحدث عن علاقاته مع تركيا ولا تحركات الجيوش الروسية فى ملداڤيا ، وكانت النتيجة أن انقاد القيصر إلى تصريحاته المشهورة .

“Yurkey seems to be falling to pieces , the fall will be a great misfortune . It is very important that Ingland and Russia should com to a perfectly good understanding and that neilher should take any decisive step of which the other is not aprized ." We have a sick men on our hands, a man gravely ill, it will be a great misfortune if one of these days he slips through out hands. especially before the necessary arrangements are made”.

وأمام ذلك أقترح سيمور أن من الخير معاملة الرجل المريض معاملة طيبة وفى

الحق كانت تصريحات القيصر بالنسبة لتركيا خالية من اللياقة السياسية فنص تصريحه الذى حذف من الكتاب الأزرق هو:

“The bear dies, the bear is dying. You may give him musk, but musk will not keep him alive.

تكلم القيصر لكل الناس عن " االدب المريض " ولم يكن نسلرود براض عن تصريحات رئيسه ولا عن كثير من آرائه فيما يختص بالدولة العثمانية.

وحين قابل القيصر سيمور مرة ثانية، وضح له أنه لا يستطيع إهمال موضوع سقوط الدولة العثمانية، فهو لا يستطيع أن يتجاهل مصير هؤلاء الملايين من المسيحيين الخاضعين لهذه الدولة، وبيَّن سيمور من ناحيته أن إنجلترا لا تستطيع أن تتكهن بسياسة بإزاء ماقد يحدث فى المستقبل، ثم هى لا تتوقع نهاية حليف لها وصديق. ولمح القيصر بأنه إذا لم تتعاون معه إنجلترا ربما اضطر إلى احتلال القسطنطينية.

وكان من رأى سيمور أن توضح الحكومة الإنجليزية موقفها الحقيقى للقيصر، وعلى أى حال لم تكن الحكومة البريطانية على استعداد لبحث العواقب التى تنشأ عن سقوط الدولة العثمانية. وإذا كان لها أن تبحث ذلك فلابد من مشاورة النمسا وفرنسا.

وكرر القيصر عباراته السابقة لغير سيمور فى ظروف متعددة : بأن إنجلترا تكون مخطئة إذا اعتقدت أن الرجل المريض لن يموت بسرعة، وأشار إلى أنه لا يرى قيام دولة إغريقية محل الدولة العثمانية لسوء حالة الإغريق المالية، كما أنه لا يسمح بتقسيم الدولة العثمانية إلى جمهورية تكون ملاذًا لأمثال كوشوط وماتسينى. وذكر أن فرنسا تطمع فى تونس، وأنه سيجد نفسه مضطر إلى إرسال منشكوف Menchikov فى بعثة سياسية إلى الأستانة، وأضاف إلى أنه فى حالة سقوط الدولة تستقل ولايتا الدانوب، وكذلك الصرب وبلغاريا، ولكن تحت حماية روسيا، وأما إنجلترا فتستطيع أخذ مصر إذا أرادت. وتأخذ فرنسا كريت، وتكون الأستانة ميناء حرًا. وتُعسكر الجنود الروسية فى البوسفور والنمساوية فى

الدردنيل.

وتناقضت تصريحات القيصر، الأمر الذى جعل سيمور يعتقد أن كل مايبغيه القيصر هو تدمير الدولة العثمانية.

ولم يرق هذا الموقف الحكومة الإنجليزية. ولم تسر لتطور العلاقات الروسية الفرنسية، وخاصة وأن النمسا كما صرح وزيرها Buol تؤيد الحالة السياسية الراهنة فى تركيا.

* * *

وسيؤدى النزاع بين فرنسا وروسيا على أمور تتعلق بالأراضى المقدسة إلى نشوب حرب القرم.

ففشل تركيا سياسة الإصلاح ، وثورة البوسنه، والإنذار النمساوى، كل هذا أدى إلى تفاقم المسألة الشرقية. وجاءت مشكلة الأراضى المقدسة فزادت الطين بلة، وعقدت الأمور بين تركيا وروسيا وتركيا وفرنسا فكما يقول الأستاذ تمبرلى فى كتابه The brimea

" a diplomtie defeat over a religous dispute could not be risked alike, by France or Russia".

فالقيصر الروسى يجد لزاما عليه حماية الأرثوذكs فى الدولة، والأمبراطور الفرنسى يرى ضرورة حماية رجال الدين الكاثوليك فى الدولة العثمانية، وكلا الطرفين لم يكن مستعداً لقبول المساومة أو التحكيم.

لقد تفوق الإغريق والكنيسة الأرثوذكسية فى الأراض المقدسة خلال الثلاثينات، نتيجة للأموال التى كانت تغدقها روسيا، والحجاج الروس والدعاية الروسية الكبيرة. نشأ عن ذلك أن انتقل بطريرك بيت المقدس الأرثوذكسى إلى القدس بعد أن كانت القسطنطينية مقر إقامته.

وأمام ذلك، ضعف نفوذ فرنسا منذ قيام الثورة الفرنسية وإهمالها أمور

الكثلكة، ولم يهتم نابليون، ولا الملكان اللذان جاءا بعده بالأراضى المقدسة ولكن الأزمة المصرية فى سنة ١٨٤٠ وجهت نظر فرنسا إلى شرقى البحر الأبيض، فعينت فرنسا أول قنصل لها فى القدس فى سنة ١٨٤٣، وعنى ذلك القنصل بمحاولة بسط حمايته على اللاتين والكاثوليك فى هذه المناطق ولذا عاد نشاط الكاثوليك الدينى إلى هذه المناطق. ودعم ذلك النشاط أن أرسل البابا بيوس التاسع بطريركًا "كاثوليكيًا ليقيم فى القدس. وأضاف البابا إلى ذلك بأن أعلن عدم اعترافه بالكنيسة الشرقية، ورد عليه بطارقة الكنيسة الشرقية" بأن البابا لايعرف الحقيقة، ولا يُريد أن يعرفها"، وقام النزاع حادًا بين الرهبان الكاثوليك والأغريق فى القدس، إلى درجة الاصطدام المسلح بالصلبان والقناديل. وكان الإغريق أكثر تنظيمًا لصفوفهم ودعايتهم من اللاتين وأكثر نجاحًا منهم. فأشرفوا على كثير من الأماكن المقدسة، فاضطر نابليون إلى التدخل لإرضاء الحزب الكاثوليكى الفرنسى الذى كان يعتمد على تأييده، فلقد جعل الحزب الكاثوليكى من مسألة الأراضى المقدسة مسألة كرامة قومية لاتقبل التراجع، فلا يمكن لفرنسا فى نظر هذا الحزب أن تعترف بتفوق النفوذ الروسى فى الدولة العثمانية فى هذه الناحية.

وعلى هذا فى سنة ١٨٥٠ تقدمت الحكومة الفرنسية إلى الباب العالى تُبين له تمسك فرنسا بامتيازاتها وفق معاهدة سنة ١٧٤٠، وأن هذه الامتيازات التى مُنحت للفرنسيين لا تلغيها الامتيازات التى مُنحت لغير الفرنسيين بعد هذا التاريخ. ولكن روسيا لم تكن مستعدة للتنازل عما اكتسبته الكنيسة الأرثوذكسية من حقوق.

ولكن أنى للباب العالى إرضاء مطالب الفريقين، وسيخضع بطبيعة الحال للفريق الذى يستطيع الضغط عليه، فلفرنسا أسطول قوى فى البحر المتوسط تستطيع تهديد ممتلكاته، ولكن روسيا أسرعت فاحتلت ولاتى الدانوب، وأصبحت

مطالبها خطرًا كبيرًا يهدد حياة الدولة نفسها. ولم يكن الباب العالى ليستطيع أن ينسى كيف أيدته فرنسا وإنجلترا أمام الإنذار النمسوى الروسى.

ومع هذا حاولت حكومة الباب العالى إرضاء الطرفين، فكوَّنت لجنة لبحث المطالب الفرنسية، ورأت هذه اللجنة أن تشترك فرنسا وروسيا فى الإشراف على الأراضى المقدسة، ولكن القيصر الروسى رفض مثل ذلك الوضع، وهدد باستخدام القوة، وامام هذا هدد السفير الفرنسى، لافاليت La Valette باستخدام القوة أيضًا إذا أقر الباب العالى موقف روسيا.

حاول الترك إيجاد حل وسط لإرضاء الفريقين المتنازعين كما يقول الأستاذ تمبرلى.

(The Turks granted the Latins two keys to the great door of the bhurch of Bethlahem, but gave a secret assurance to the Russians a few days later that the Latins should not pass through the great door of the church of Bedehem).

ولكن إذا كانت روسيا مستعدة لاستخدام القوة، فكذلك كانت فرنسا مستعدة لاستخدام أسطولها، وإرسال سفنها إلى الدرنيل، وخرق معاهدة المضايق ١٨٤١، وعلى أساس هذا فكانت مسألة الأراضى المقدسة ممهدة للحرب.

وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٥٢ وصل رئيس الجمهورية الفرنسية إلى مركز الإمبراطورية، ولم يكن مستعدًا لترك الامتيازات التى نالتها فرنسا، ولكنه كان ينتظر قبل كل شئ اعتراف ملوك أوربا به. واعتراف ملوك أوربا به فيما عدا القيصر الروسى الذى لم يستطع أن يُخاطبه إلا " كصديق " لا " كأخ" إذ كان يرى أن هنرى الخامس هو ملك فرنسا الشرعى لا نابليون، فنابليون لم يرث العرش من ا& كبقية ملوك أوربا، فهو مجرد رجل ثورى أصبح حاكما لفرنسا بحكم الواقع. وما كان نيكولاس يعترف بإمبراطور منتخب عن طريق استفتاء الشعب - وبذا زاد بعد الشقة بين فرنسا وروسيا.

* * *

وفى المسألة العثمانية بالذات كان القيصر يُفضل التفاوض مع الدول الكبرى مع كل دولة منفردة، لا فى مؤتمر عام يجمع الدول، وظن فى سقوط وزارة داربى Derby، ومجئ وزارة صديقة أبردين Aberdeen، تحقيقًا لآرائه فى حل الأزمة الشرقية، وخاصة وأن أبردين كان صديقًا أيضا لسفير روسيا فى لندن برونو. أخذ القيصر يكرر على إنجلتر أن فرنسا لها مطامع كبيرة فى البحر الأبيض، وأن نابليون مجرد "Parvenu"، دعى يعمل على الإساءة إلى العلاقات التركية الروسية- عملت روسيا إذن على استغلال مخاوف أبردين.

ولكن وزارة أبردين جاء فيها لورد جون رسل Russell وزير للخارجية وبالمرستون وزيرا للداخلية وهما شخصيتان لا يستطيع أبردين إقناعهما بسهولة. فى أوائل عهد هذه الوزارة صرح القيصر بتصريحاته المشهورة السابقة لسيمور. وسيظهر للقيصر وسفيره برونو أن وزارة أبردين ليست أداة طيعة فى أيديهما فلم يكن أبردين بالذى يستطيع إصدار الأوامر إلى زملائه.

ولذا أمام موقف فرنسا القوى فيما يختص بحقوقها فى الأراضى المقدسة قرر القيصر القيام بمناورات حربية على الحدود التركية، وإرسال بعثة منشكوف Menschikov للأستانة.

وفى تعليمات القيصر لمنشيكوف، بين القيصر أن ليس له مطامع شخصية فى الدولة العثمانية، وإنما هو يُريد تحقيق مطالب رعاياه. أرسل القصر منشكوف فى بعثة سلمية فى الظاهر. ولكن كان الغرض منها هو تهديد السلطان، حتى لا يستجيب لمطالب فرنسا. وكان القيصر يُريد فرض حماية روسية على رعايا السلطان الأثوذكسى. ولخص السفير الروسى برونو الموقف فى عبارته المشهورة.

(Russia is strong, Turkey weak, that is the preambule of all treaties. This epitaph is inscribed already on the tomb of the Turkish Empire).

ولم يكن منشكوف يمتاز بالكياسة واللباقة- وكانت مهمته كما رأينا إنتزاع

فرمان من الباب بإرجاع الحالة فى الأراضى المقدسة إلى ما كانت عليه قبل فبراير ١٨٥٢، وأخذ فرمان آخر أو "سند" بتأكيد حقوق الرعايا الأرثوذكس، وحماية الروسيا لهم: وفى حالة اعتراض فرنسا أو تهديدها للباب العالى يعقد منشكوف مع الدولة العثمانية معاهدة دفاعية سرية.

كانت التعليمات إلى منشكوف بألا يغفل سياسة التهديد للباب العالى وأن يُرِىَ استعداد روسيا للحرب ، وأن تركيا لا تستطيع الصمود أمام جيوش روسيا. ووصل منشكوف على سفينة حربية إلى الأستانة، وكان منشكوف رجلاً متكبرًا متغرطسًا يرمى قبل كل شئ إلى إذلال وزراء السلطان، ولذا وجد من مهمته العمل على طرد فؤاد باشا من وزارة الخارجية، فكان فى هذا امتهانًا واضحًا للسلطان والوزارة وللحكومة العثمانية.

ولم ينس الأتراك ذلك- ولكن استقالة فؤاد كانت عاملة إثارة مخاوف فرنسا فأسرع سفيرها بندتى Benedetti بطلب إرسال الأسطول إلى المياه التركية، ولم يستفد منشكوف كثيرًا من غياب ستراتفود دى رد كلف السفير الإنجليزى الذى سرعان ما عاد ليستأنف نشاطه المعتاد ضد روسيا.

وأرسل وزير الخارجية الفرنسية الأسطول الفرنسى إلى سلاميس استعدادًا للطوارى، بالرغم من أن إنجلترا لم توافق على هذه الخطوة من جانب فرنسا.

كان استرانفورد رجلاً قويًا ولكنه لم يكن محبًا للحرب- وكان من رأيه تأييد الأتراك ضد السياسة الروسية التى ترمى إلى تدمير الدولة العثمانية، ولكن الوزارة الإنجليزية لم تكن لتلقى اهتمامًا كبيرًا لسياسة روسيا فى الأراضى المقدسة لا بتأييدها ولا بمعارضتها.

وعلى أيه حالة لم يهدأ نشاط منشكوف، وأخذ فى تقديم مطالبه الواحد تلو الآخرى، وكان من بين مطالبة تعيين البطاركة الأربع الأرثوذكس فى الدولة مدى الحياة وهو يرمى من وراء ذلك أن لا يكون للسلطان سلطة فى إبعادهم أو عزلهم، لاسيما أنه كان لهؤلاء البطاركة نفوذ سياسى كبير إلى جانب نفوذهم الدينى.

لم يستطع الأتراك قبول مطالب منشكوف، وخاصة بعد عودة ستراتفورد، " وكانت هذه ثالث مرة يعود فيه إلى القسطنطينية سفيرًا" . فقد رآى فيها السفير الإنجليزى عملاً من جانب روسيا يرمى إلى تقسيم الدولة وانهيارها . لكنه كان يرى محاولة إقناع روسيا بالعدول عن مثل هذه المطالب وإلا فمثل هذه المحاولات قد تُؤدى إلى تكتيل الدول ضد روسيا .

ولقد أجل منشكوف إرسال إنذاره للسلطان حتى تتم استعدادت روسيا على نهر بروث، على الحدود الروسية التركية، فلما تمت، قدم إنذاره للسلطان بطلب " ضمانات" وجدتها الحكومة الإنجليزية حتى أبردين نفسه " غير معقولة"، ووجد فيها سترانفورد خطرًا كبيرًا على استقلال الدولة العثمانية نفسها .

وعاد منشكوف يصر على إغلاق الدردنيل أمام سفن فرنسا وإنجلترا، ويُهدد بالانسحاب إذا لم تُجب مطالبه، وبقى إلى يوم ١٣ مايو، طالب فيها فى مقابلته للسلطان بعزل رئيس الوزارة ووزير الخارجية، وخضع السلطان وعزل الإثنين، محمد على باشا ورفعت باشا، وإن كان قد بقى نفوذهما، وتحت ضغط منشكوف كذلك عين السلطان رشيد باشا وزيرًا للخارجية.

كان منشكوف يرى فى رشيد خادمه المطيع، ولكن رشيدًا لم يكن سياسيًا هينًا كما كان يظن المبعوث الروسى، ولم يكن أداة طيعة فى يد روسيا، فطلب من منشكوف التريث بضعة أيام حتى يُتاح له النظر فى المقترحات الروسية، ولكنه عاد إلى المندوب الروسى بمقترحات جديدة تفقد المطالب الروسية أهميتها، فرفضها منشكوف، وأعلن أنه سيُغادر القسطنطينية مباشرة، ولكنه انتظر مؤملاً فى استطاعة رشيد إقناع " مجلس الدولة العثمانى " بقبول مطالب روسيا .

ولكن ستراتفورد من ناحيته حاول إفساد هذه الخطة على منشكوف بأن دعا إلى عقد اجتماع من ممثلى النمسا وفرنسا وبروسيا للنظر فى الأزمة التركية الروسية، وحاول فعلاً ممثلوا هذه الدول التوسط، ولكن منشكوف رأى أن تُجاب مطالبه كاملة، وهدد بالانسحاب إذا لم تُجب هذه المطالب، ولكنه كالعادة لم يفِ بوعده، فلقد خشى تدخل أوربا . فهم منشكوف تمامًا أن ستراتفورد يُريد أن

يجعل من الأزمة الروسية التركية أزمة دولية، فنصح ستراتفود الأتراك برفض مطالب روسيا واستصلاح منشكوف!!

ولم يكن أمام المبعوث الروسى منشكوف غير ترك الأستانه فى ٢١ مايو بعد أن رفض الأتراك مطالبه، فلقد وجدوا فى هذه المطالب تعارضًا مع استقلال تركيا، وخطرًا على مستقبلها، وتناقضًا مع معاهدة المضايق فى سنة ١٨٤١ .

* * *

وفى أواخر مايو أمر القيصر جيوشه باحتلال ولايتى الدانوب فأرسلت إنجلترا وفرنسا أسطوليهما إلى خليج بيسيكا Besikaخارج الدردنيل. واحتجت الدول على احتلال الروس للولايتين الدانوبيتين، فلم يكن لهذا الاعتداء سند قانونى. ورأت إنجلترا فى طريقة منشكوف " طريقة الدب قبل أن يقتل فريسته"، وساد فى لندن سوء الظن فى سياسة القيصر حتى أن أبردين نفسه، رأى أن مطالب منشكوف " غير معقولة ويجب مقاومتها". ورأت كثير من الصحف الإنجليزية أن على إنجلترا إتخاذ موقف حاسم أمام روسيا لمنع وقوع الحرب - وحبذت إرسال الأسطول الإنجليزى لتحذير روسيا عواقب سياستها، وعواقب احتلالها ولا يتى الدانوب. ووثقت إنجلترا صلاتها بفرنسا.

ورأى بالمرستون بصفة خاصة، توكيد هذه السياسة بتحذير روسيا من عواقب سياستها الاعتدائية بأن تُبين لها إنجلترا أن إحتلال الروس للولايتين الدانوبيتين فيه خرق تام لاتفاقية المضايق، وعلى هذا فالدول تعتبر الآن أن المضايق مفتوحة لسفنها الحربية، مادام الروس لايزالون معسكرين فى الولايتين الدانوبيتين. وتتوقف حركات أساطيل الدول بعد ذلك على الظروف.

كان بالمرستون يرى أن مثل ذلك الإنذار إذا قدم لروسيا سيجعل القيصر يتريث ويُعيد النظر فى موقفه، فاتخاذ الحكومة الإنجليزية موقفًا حاسمًا سيؤدى فى نظره إلى المحافظة على السلام فى جنوب شرقى أوربا.

ولكن الوزارة البريطانية لم تكن تجرؤ على تنفيذ مقترح بالمرستون، بالرغم

من أن ذلك المقترح كان يجد تأييدًا من نابليون الثالث ووزرائه- ورأت الوزارة البريطانية اتباع سياسة أنصاف الحلول، فرفضت إرسال لأسطول إلى البوسفور لأن فى هذا تحرشًا بروسيا، فلقد كانت لا تزال تؤمل فى السلام وفى أرعواء القيصر عن غيه.

وفى ٣١ مايو أرسل نسلرود بناء على تعليمات سيده إنذارًا إلى تركيا بأن الجيوش الروسية ستحتل الولايتين الدانوبيتين إذا لم تُجب مطالب روسيا كاملة، ووصل الإنذار إلى القسطنطينية فى ١٠ يونيو، وقبل وصول الإنذار،" كانت تركيا لتفسد على الروس خطتهم، قد اعترفت بحقوق رعاياها الأرثوذكس. ورفض رشيد باشا الإنذار الروسى فى ١٦ يونيو، وبذا اضطر بقية أعضاء- السفارات الروسية فى القسطنطينية إلى مغادرتها غير مأسوف عليهم من أحد، على الأقل لا من الأتراك ولا من الإنجليز أو الفرنسيين.

وفى ٧ يوليو وصلت تركيا أخبار عبور الجنود الروس حدودها، ومع ذلك فلم يعتبر السلطان ذلك الاعتداء سببًا للحرب.

فى هذه الأثناء تصدر مذكرة فينا، ويقبلها نسلرود، ولكن الأتراك لم يستطيعوا قبولها، ولتفصيل ذلك الموضوع نقول:

حين أرسلت فرنسا وإنجلترا أساطيلهما إلى خليج بيسكا لم تكن عندهما نية للدخول فى حرب ضد روسيا، فلقد كانتا تظنان أن روسيا ستُسلم بمطالبهما ولما لم تستسلم روسيا، فكرت الدولتان فى إعادة التحالف الأوربى القديم، ولكن فى هذه المرة ضد روسيا. ولكن حوادث سنة ١٨٥٤ بينت أن مثل ذلك التفكير قائم على غير أساس عملى فى ميدان السياسة الدولية.

ففى الدولة النمساوية، وهى الدولة التى سيتوقف عليها التوازن الدولى فى السنتين القادمتين، وجد فريق على رأسه وزير الخارجية بول Buol، يُؤيد التحالف مع إنجلترا وفرنسا، فهذا فى نظره من شأنه حماية مصالح النمسا فى مصب الدانوب – ولكن القواد النمساويين كانوا على غير رأيه، فكانوا يرون أن التحالف

سيكون معناه وقوع الحرب على كاهل النمسا وحدها، إذا قام نزاع مسلح بين الدول الغربية والروسيا. ولكنهم كانون يعتقدون أن الحالة تختلف إذا كان من الممكن إقناع بروسيا بالتدخل إلى جانب النمسا. فعلى الأقل تطمئن النمسا إلى بروسيا لن تقوم بعدوان ضدها فى ألمانيا. ثم إن بروسيا تستطيع تهديد فعلياً فى ممتلكاتها البولونية.

وإرضاء لهذا الفريق من رجال الحرب أجل بول فكرة التحالف مع الدول الغربية إلى أن يصل إلى اتفاق مع بروسيا.

ولكن البروسيين كانوا يرغبون فى الاتفاق مع النمسا مسوقين بدافع آخر يختلف عن الدافع النمسوى، هو إقناعها باتباع سياسة الحياد بين الفريقين المتخاصمين، لأن بروسيا كانت تعرف أنه إذا دخلت النمسا فى حرب مع روسيا، ستجد بروسيا نفسها مضطرة إلى تأييدها وتجشم غمار حرب لا فائدة حقيقة لها منها. حقيقة لقد كان فريق فى بروسيا يُؤيد الدولتين الغربيتين. وعلى رأس ذلك الفريق ولى العهد، ولكنه استبعد نفوذه ولم يؤخذ برأيه.

وعلى أى حال، وضع بول مذكرة ڤينا التى وافقت عليها الدول، وقبلها نسلرود، ولكن كما قلنا وجد الأتراك ضرورة رفضها. إذا وجدوا فيها مساساً بكرامتهم، فلقد حررت هذه المذكرة دون الرجوع لرأيهم، كما يقول رشيد باشا، ومن ناحية ثانية، لم تقل المذكرة شيئًا عن انسحاب الروس من الولايتين الدانوبيتين- لقد عملت مذكرة ڤينا بلا ريب على إثارة روح المقاومة عند الأتراك. ولكن الذى أثار روح المقاومة أكثر من مذكرة ڤينا كان وصول القوات المصرية إلى الأستانة. فرفض الأتراك إذن مذكرة ڤينا بالشكل الذى قدمت به واقترحوا تعديلات فيها فى صالحهم .

ولقد أثار رفض الأتراك للمذكرة حيرة الساسة الأوربيين ، وخاصة بعد أن قبلها القيصر الروسى. وسرعان ما ظهر لإنجلترا أن فهم القيصر للمذكرة مختلف كثيراً عن فهم إنجلترا وفرنسا لها. ولذا ستضطر إنجلترا وفرنسا إلى

التخلى عن مذكرة ڤينا فى ١٧ سبتمبر، واتباع سياسة مستقلة عنها .

وبالرغم من ذلك لم يضع الأمل فى المحافظة على السلام، فكان معروفا أن اجتماعًا سيُعقد بين القيصر النمساوى والروسى فى ألمتس Ulmutz فى نهاية سبتمبر، وظنت الدول أنه ربما خفف هذا الاجتماع من حدة التوتر الدولى .

وأما فى الأستانة فلقد ثار الرأى العام العثمانى ثورة عنيفة ضد روسيا مطالبًا بالحرب .

ومع هذا ظل أبردين على تحفظه ، فهو غير ميال إلى اتخاذ موقف حاسم والدخول فى غمار حرب كبيرة ، ولكن الإمبراطور الفرنسى كان ميالاً إلى القيام بعمل مسرحى درامتيكى، فاقترح ذهاب أساطيل الدولتين إلى القسطنطينية، فرفضت إنجلترا ، وفضلت الانتظار حتى تعرف موقف القيصر الروسى من التعديلات التى اقترح الأتراك إدخالها ، ولكن القيصر رفض هذه التعديلات .

حينئذ اضطرت إنجلترا إلى اتخاذ خطة عدائية صريحة ضد روسيا، خاصة وأن الصحافة والرأى العام الإنجليزى كانا عنيفين فى ثورته ضد القيصر الروسى، وطالبت الصحافة الحكومة البريطانية باتخاذ إجراءات صارمة ضد روسيا . عندئذ قررت الوزارة الإنجليزية إرسال الأسطول الإنجليزى إلى الأستانة وخاصة حين رأت أن فرنسا قد وجدت نفس الضرورة لإرسال الأسطول الفرنسى إلى المياه العثمانية .

وأما المتس ، فلفد حاول القيصر الروسى بعد أن رأى إصرار إنجلترا وفرنسا على مقاومة نفوذه ، إصلاح موقفه بعض الشئ ، وتعهد بالانسحاب من الولايتين الدانويتين، (الأمر الذى كان يهم النمسا بطبيعة الحال قبل كل شئ)، وحاول تفسير موقفه من مذكرة ڤينا، واقترح على النمسا تقديم مقترح بول Buol يحدد فيه موقف روسيا، وكان مشروع بول محاولة جدية لصيانة السلام ، ولكن إنجلترا وجدت رفضه، وكذلك وجدت فرنسا، لاسيما وأن الأتراك قد أعلنوا فعلاً الحرب على روسيا فى ٤ أكتوبر .

ولقد حاول ستراتفورد ، بالرغم من إعلان الترك للحرب ، منع وقوع أعمال عدوانية من جانب الباب العالى ، حتى يكتسب عطف الدول الأروبية .

وفى ٨ أكتوبر طلب رشيد باشا دخول الأسطولين الإنجليزى والفرنسى الدردنيل، ولم يكن بُد إذن من الحرب، بعد أن هاجم عمر باشا قوات الروس فى الولايتين ، وبدأت الحرب فى ٢٣ أكتوبر .

فى هذا الشهر نفسه، كانت الوزارة الإنجليزية منقسمة على نفسها، فلقد كان الخوف شديداً من جانب بعض الوزراء، من دخول الحرب ، أو إحراج الإمبراطور الروسى، وكان على رأس هؤلاء الخائفين الوزير أبردين، وعلى رأس المطالبين بالحرب بالمرستون ورسل، وأخذ نفوذ أبردين يتضاءل بسرعة أمام نفوذ هذين الوزيرين.

ولقد حاول ستراتفورد فى القسطنطينية محاولة أخيرة للمحافظة على السلام، وذلك بناء على أوامر حكومته فلم يفلح، وجاء الرفض من جانب الأتراك، فلم يكونوا مستعدين لقبول السلم بأى ثمن، وخاصة بعد أن كسبت جيوشهم انتصارات على الجيوش الروسية فى أواخر شهر نوفمبر .

وكان القيصر الروسى نيقولاس قد أعلن أنه لن يُهاجم الترك إلا إذا هاجموا قواته، ولكن قوة بحرية روسية كبيرة قابلت قوة بحرية تركية صغيرة عند سنوب ودمرتها ، فأثارت هذه الكارثة عاصفة من السخط فى إنجلترا ضد روسيا. ففى إنجلترا أطلق على تلك الموقعة "Massacre of sinope"، ورأى ستراتفورد ضرورة دخول الأساطيل الإنجليزية والفرنسية البحر الأسود لوضع حد لاعتداءات وحركات الأسطول الروسى، واستقال بالمرستون من الوزارة، واضطرت إنجلترا إلى أن تُعلن للقيصر الروسى بأنه إذا عبرت جيوشه الدانوب ستدخل إنجلترا الحرب ضد روسيا، وأرسلت الحكومة الإنجليزية تعليمات واضحة إلى أسطولها فى المياه التركية بحصار الأسطول الروسى. ورأى نابليون الثالث إلا مناص من تطهير البحر الأسود من السفن الروسية الحربية، وأن فرنسا مستعدة للقيام

بهذه المهمة وحدها فخشيت الحكومة الإنجليزية أن تنفصل عن فرنسا، وخشيت سيطرة فرنسا على البحر. وحين صممت الحكومة البريطانية على اتخاذ خطة حاسمة فى ٢٤ ديسمبر ١٨٥٣ عاد بالمرستون إلى الوزارة وقررت إنجلترا وفرنسا دخول الحرب ضد روسيا وأعلنتاها فى مارس سنة ١٨٥٤ .

وفى ١٠ أبريل عقدت حكومتا إنجلترا وفرنسا حلفًا رسميًا ضد روسيا، وبذا أصبح نابليون الثالث حليفًا لملكة إنجلترا، ولو أن الدولتين أعلنتا الحرب على روسيا، إلا أنهما كانتا فى حيرة من حيث مهاجمة روسيا، فكل مايجب عمله فى ظنهما كان إرسال حملة حربية للدفاع عن القسطنطينية. لكن هل هذا كان كافيًا!

ولكن الجيوش الروسية لم تُهاجم تركيا حربيًا، فأولاً لم يستطع القيصر إلا تكوين جيش مكون من ٣٥٠ ألف جندى بدلاً من ٨٠٠ ألف جندى الذين كان يُجاهر باستطاعته جمعهم . كذلك لم يستطع الروس تهديد القسطنطينية، بل لم يستطيعوا حماية مركزهم فى الولايتين الدانوبيتين، لأنهم كانوا فى شك من نيات النمسا، فما كان الروس يستطيعون التقدم فى البلقان أمام تحركات الجيوش النمسوية. وكانت النمسا من ناحيتها فى أول الأمر غير مطمئنة إلى مركز روسيا فى الولايتين الدانوبيتين، ولكن لما أعلن الحلفاء الحرب على روسيا ، لم يجد النمساويون مبررًا للقيام بأى عمل ضد روسيا فلقد اطمأنوا إلى جانبها لعلمهم أن الجيوش الروسية لن تستطيع مهاجمة الحدود النمسوية .

وعلى ذلك كانت بروسيا مستعدة للموافقة على عقد تحالف مع النمسا، على شرط ألا تدخل النمسا فى حلف مع دولة غير جرمانية، وأراد بول أن يضع فى ذلك الحلف شرطًا، تُؤيد فيه بروسيا النمسا فى الولايتين الدانوبيتين، إذا رفضت روسيا الانسحاب منهما. ولكن بروسيا أصرت على أن تقف النمسا موقف الحياد التام، وبذا عقدت المحالفة بين ڤينا وبرلين فى ٢٠ إبريل، وكان هذا انتصارًا واضحًا للسياسة النمسوية التى استطاعت بلا شك الاستفادة من النزاع الناشب بين روسيا من ناحية وغرب أوربا من ناحية أخرى .

ولقد حاولت روسيا من ناحيتها ضم النمسا إلى جانبها بإثارة موضوع خطر الثورة على النظام الملكى، ولكنها لم تنجح فى هذه المحاولة، وطلب النمساويون فى ٣ يونيو من روسيا إخلاء ولايتى الدانوب ، فكانت هذه خطوة حاسمة من جانب النمسا .

ورأت الحكومة الروسية أنه لا سبيل لها فى حرب فى البلقان مع الجيوش النمسوية فى الوقت الذى تُهددها فيه أساطيل حلفاء البحر الأسود ، وأمام نصح بروسيا لروسيا بالانسحاب من ولايتى الدانوب ، وافق القيصر إذا وعدت النمسا بمنع الحلفاء من احتلالها خشيت روسيا من انضمام بروسيا إلى جانب النمسا وفى الواقع أن الروس كانوا مضطرين إلى ترك الولايتين تحت ضغط الجيش التركى قبل كل شئ .

وفى ظل الحرب طلبت النمسا من الحلفاء معرفة أهدافهم من الحرب، حتى تستطيع إذا دخلت معهم ألا تخدم المبادئ الثورية ووجد هذا الكلام أذنًا صاغية من وزير الخارجية الفرنسية المحافظ درون دى لوى Drouyn de lhuys، ولكن بريطانيا لم ترد التقيد بشئ، ورفضت تحديد أهدافها من الحرب، إذ كان كل مايهم الوزارة الإنجليزية هو كسب الحرب وإرغام أنف روسيا، ولكن هذا لم يرجع الوزير الفرنسى عن رأيه فى التفاوض مع النمسويين والوصول إلى اتفاق معهم ونتيجة لذلك وضعت النقط الأربع بين الطرفين الفرنسى والنمسوى خلف ظهر بريطانيا، وهذا النقط الأربع هى التى سيرت دبلوماسية حرب القرم .

وقالت هذه النقط إنه لا يمكن إنشاء علاقات طبيعية بين تركيا وروسيا إلا على الأ سس الآتية :-

١- وضع ضمان أوربى لولايتى الدانوب محل حماية روسيا لهما .

٢- تقرير حرية الملاحة فى نهر الدانوب .

٣- إعادة النظر فى اتفاقية المضايق ١٨٤١ لصالح توازن القوى فى أوربا .

٤- ترك الروس ادعائهم حق حماية الرعايا المسيحين للدولة العثمانية وبدلاً من هذا. تأخذ دول أوربا وعدا من السلطان بتحسين حالة رعاياه المسيحيين.

وقامت حرب القرم فى الواقع على أساس النقطة رقم ٣، إذ أن القيصر الروسى وافق على النقط الأخرى تقريبًا. قامت حرب القرم بخصوص تفوق قوة روسيا البحرية فى البحر الأسود، فهذا له أثر بلا ريب على تركيا، وعلى توازن القوى فى أوربا. واضطرت الحكومة الإنجليزية إلى قبول النقط الأربع بعد تردد كبير ورفض. ولكن فى الوقت الذى وصلت فيه ڤينا موافقة إنجلترا على هذه النقط الأربع وصلتها أيضًا أخبار انسحاب الروس من ولايتى الدانوب، عندئذ رفض الأربع وصلتها أيضا أخبار انسحاب الروس من ولايتى الدانوب، عندئذ رفض بول إمضاء ذلك الحلف الذى اقترحه، ودخلت قوات النمسا الولايتين الدانوبيتين، وبذلك نجح دون أن يرفع أصبعًا فى طرد الروس من ولايتى الدانوب وعرف أهداف الحلفاء الحربية، وحدد هذه الأهداف.

وترك انسحاب الروس الحلفاء فى حيرة، فلقد دخلوا الحرب لوقف أعمال روسيا العدوانية، وانتهى بالفعل اعتداء روسيا، فلم تقف الجيوش الروسية فى ولايتى الدانوب انتظارًا لهجوم جيوش الحلفاء، فمن أين يُهاجم الحلفاء روسيا بعد ذلك؟؟

لم يكن مفر أمام الحلفاء بعد هزيمتهم السياسية الكبيرة أمام النمسا إلا خوض غمار الحرب ضد روسيا- لقد كان نابليون يرغب فى بعث بولونيا من جديد على نطاق كبير، ولكن الظروف الحربية ما كانت تسمح بذلك، وخاصة وأن إنجلترا لم تكن راغبة للدخول فى حرب فى مصلحة الثورة، فهى لا تُريد إغضاب النمسا وبروسيا. وبعد ذلك فدرون دى لوى يرى ضرورة المحافظة على رضاء ڤينا وبرلين.

ولذا فالحل الفعلى هو قيام الحلفاء بحرب حربية وبرية ضد قاعدة الروس فى سباستبول. وبذلك يقضون على قوة روسيا البحرية وينفذون النقطة رقم ٣ .

لا داعى للتطويل هنا فى وصف العمليات الحربية التى قامت بها جيوش الحلفاء أو قامت بها جيوش الروس. لقدج استطاع الحلفاء إنزال حوال ٣٥ ألف جندى فى شبة جزيرة القرم، وفى ٢٠ سبتمبر حاول الروس منع الحلفاء من التقدم، ولكنهم انهزموا هزيمة منكرة فى موقعة ألما- ثم حاصروا مدينة سباستبول ولم يكن حصار القاعدة حصارًا بالمعنى الصحيح فكانت على اتصال مباشر "بروسيا" تأتيها الإمدادات باستمرار. وكان منشكوف فى نفس الوقت يقود جيشًا كبيرًا إلى شرقى المدينة وكان دائبًا على مقاومة قوات الحلفاء مكبدًا إياهم خسائر جسيمة، ولم تقم البحرية المتحالفة بالرغم من تفوقها الكبير بدور مذكور فى الحرب والحصار، فلقد أغرق الأسطول الروسى عند مدخل سباستبول، فلم تستطع مدافع أساطيل الحلفاء إصابة القاعدة . وكان تفوق الحلفاء البرى أيضًا لا شك فيه ولكن مرت مدة طويلة، أنهكت فيها قوة الحلفاء إنهاكًا كبيرًا.

وحاول الروس مرتين طرد الحلفاء ففشلوا وخاصة فى موقعتى بلا كلافا وانكرمان Balaklava & Inkerman (فى شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٨٥٤) ولكن الحلفاء لم يستطيعوا أخذ سباستبول، كما لم تستطع الروس طرد الحلفاء. وظل الأمر على ذلك إلى يونيو سنة ١٨٥٥. ظل الموقف الحربى جامدًا، وكان معنى هذا العودة إلى ميدان السياسة.

* * *

كان من العسير ، كما رأينا اختيار منطقة يمكن فيها ضرب الروسيا ضربة قاتلة، وخاصة وأن الأمراض ولا سيما الكوليرا فتكت بجنود الحلفاء فتكًا ذريعًا، وكانت جيوش فرنسا وإنجلترا غير مستقرة لمواجهة كثير من المشاكل التى نشأت فى الموقف.

وحين قرر الحلفاء مهاجمة روسيا فى قاعدتها البحرية الكبرى فى البحر الأسود سباستبول، كانوا يظنون أن الأمر هين نظرًا لتفوقهم فى البحرى، وأن روسيا سرعان ما تجثوا على قدميها، وكانوا يظنون أن تدمير سباستبول فيه

تدمير لمركز الروس البحرى فى البحر الأسود، كان هذا من أهداف الحرب بلا ريب على ذلك نزلت جيوش الحلفاء فى يباتوريا Eupatoria شمال سباستبول، وكان على رأس القوات الإنجليزية راجلان Ragla أحد رجال ولنجتون القدماء ليس لدية علم كبير بما تطور إليه فن الحرب، وعلى رأس الجيش الفرنسى سانت أرنو St-Arnaud، وكان قائد الجيش الروسى منشيكوف، ولم يُهاجم الحلفاء القاعدة فى سباستبول مباشرة، ولو هاجموها مباشرة لسقطت فى أيديهم، كما يقول القائد الروسى العظيم تودليبن. Todleben ولكنهم بعد موقعة ألما التى سبق ذكرها زحفوا جنوبًا، وفى هذه الأثناء استطاع تودليبن أن يُنظم الدفاع عن القاعدة بحيث استطاع الوقوف أمام الحلفاء سنة كاملة (من سبتمبر ١٨٥٤ إلى سبتمبر ١٨٥٥)

نعود إلى مركز السياسة فى أوربا فى ذلك الوقت إلى ڤينا- لقد حاول الحلفاء الاستغناء عن تأييد النمسا بكسب حربى على الروس- ولكن الحلفاء الآن، يستطيعوا البقاء فى القرم أمام هجمات الروس المتكررة، وكان لابد لهم من تأييد النمسا، وهذا لا يكون إلا إذا وافقت النمسا على تهديد الروس حربيًا وإجبارهم على وضع جيش كبير على حدود جاليسيا- وأما الروس فقد رحبوا من ناحيتهم بمحاولة السياسة، فهم لم يستطيعوا طرد الحلفاء من القرم، فانتظر الطرفان إذن ما تتخذه النمسا لحل الموقف.

كان وزير خارجية النمسا بول. يرى إجبار روسيا على الخروج من الحرب بإعلان عزمه على التحالف مع الحلفاء، على أساس شروط تُسهل لروسيا الاستسلام ولكنه كان يُريد التأكد أولاً من قبول التحالف مع دول الغرب ليس معناه دخول النمسا فى غمار الحرب. فهو إذن يُحاول اقناع روسيا بقبول النقط الربع، وحاولت بروسيا من ناحيتها تأييده للوصول إلى هذا التحالف.

ونظرًا لأن سياسة النمسا فى هذا الموضوع كانت مرتبطة بسياستها فى إيطاليا قبول الذى كان يعرف الكثير عن ماضى نابليون الثالث فى إيطاليا وعطفه

عليها كان يخشى دائمًا نوايا الحكومة الفرنسية بالنسبة لإيطاليا، فهو لذلك لا يشدد فى الضغط على الروس، ولم يكن الإنجليز يُريدون التقيد كثيرًا بسياسة بول، ولكن الفرنسيين الذين وقع عليهم العبء الأكبر فى حرب القرم، جعلوا استمرارهم فى الحرب مشروطًا بالحلف النمسوى، وبذا عقد بول معاهدة تحالف مع إنجلترا وفرنسا، بها- إذا لم يتم الصلح أواخر ذلك العام تتناقش الدول الثلاث فيما يجب عمله للوصول إلى هدفهم. كان هذا فى ٢ ديسمبر وفى ٢٩ ديسمبر أعلن الروس قبولهم للنقط الأربع، وطرب نابليون للحلف النمسوى- لقد كان الفرنسيون مستعدين لتثبيت الوضع الراهن فى إيطاليا إلى حين حرصًا على صداقة النمسا وتأييدها.

ومن هنا حثت إنجلترا وفرنسا سردينيا على إرسال قواتها للقرم حتى لاتستخدم هذه القوة ضد النمسا فى إيطاليا. وقبل الوزير السردينى كافور Ca-vour فكرة الاشتراك مع الحلفاء، بالرغم من رفض زملائه فى الوزارة لها، فهو يحرص على صداقة الدول الغربية، ولو أدى هذا إلى التعاون مع النمسا عدوة إيطاليا، ولكن زملاءه رفضو الاشتراك، ولم يجدد الحلفاء طلبهم إلا فى نوفمبر وكان كافور يرمى إلى إسماع صوت إيطاليا فى مؤتمر الصلح، فأراد وضع شروط منها عقد اتفاق سرى بين فرنسا وسردينيا، ولكن الحلفاء رأوا إلا اشتراك سردينيا دون قيد ولا شرط من جانبها وأمضيت اتفاقية حربية فى يناير ١٨٥٥.

وكان هذا انتصارًا واضحًا لسياسة بول، ومع هذا إذا كانت إنجلترا وفرنسا فى الاتفاقية السابقة الذكر لم تتعهدا بتأييد مطالب إيطاليا، فهما لم تتعهدا بخذلانها، ولم يُحارب كافور إلى جانب النمسا لأنه كان يعتقد اعتقادًا تامًا أنها لن تدخل الحرب.

وأما بروسيا فقد أعلنت موقف الحياد، فالمسألة الشرقية لا تهمها كثيرًا ولكن حيادها كان مهمًا لروسيا، إذ استطاع القيصر أن يطمئن من ناحية حدوده الغربية. وتبع السياسة البروسية فى الحياد، كل ألمانيا، إذ أن ألمانيا كانت مستعدة

للدفاع عن النمسا كدولة چرمائية لا كدولة بلقانية.

والواقع أن الدولتين إنجلترا وفرنسا لم تلقيا بالاً كبيرًا لموقف بروسيا، فكل ما كان يهم الدولتين هو موقف الحكومة النمسوية. وكانت الدولتان تظنان أن الحلف النمسوى سيرغم النمسا على دخول الحرب إلى جانبهما. على أى حال جعلت معاهدة الحلف المفاوضة على أساس نقطة٣، وأصر الإنجليز من ناحيتهم على تدمير سباستبول، وتحديد أسطول روسيا فى البحر الأسود إلى أربع سفن، ولكن الفرنسين ذكروا أن النمسا لن تقبل ذلك، فالحلفاء لم يأخذوا سباستبول بعد، وفى حالة أخذ سباستبول لامحل لتدميرها.

وأخيرًا اتفق الحلفاء مع النمسا على تفسير نقطة ٣ بأن يُوضع حد لتفوق روسيا فى البحر الأسود، وكان الحلفاء يودون عدم قبول روسيا لذلك التفسير، فتضطر النمسا إلى دخول الحرب فى صف الحلفاء، وقبل مندوب روسيا جورتشا كوف التفسير الأخير، واضطر الحلفاء إلى قبول عقد مؤتمر فى ڤينا.

ولكن موقف الفرنسيين سرعان ماتغير، فأصبحوا يرون الاستمرار فى الحرب لاعقد الصلح، فنابليون كان يرى أن كرامة فرنسا تستلزم عدم الدخول فى صلح إلا بعد أخذ سباستبول، فلقد كان أشد الحاجة إلى نصر خارجى وأصر على الذهاب إلى القرم بنفسه، ولكن أنصاره كانوا يخشون سقوط الإمبراطورية أثناء غيابه وخاصة إذا انهزم فى الحرب أمام الروس.

وفى ٣٠ يناير سقطت وزارة أبردين لفشلها فى تسيير دفة الحرب، وكوَّن بالمرستون وزارة فى ٦ فبراير. وكان بالمرستون مصممًا على الاستمرار فى الحرب وقهر الروسيا.

كان الروس من ناحيتهم مستعدين لقبول الصلح، فلقد ساءت حالهم الاقتصادية والحربية، ومات نيكولاس فى ٢ مارس، وبذلك زالت أكبر عقبة فى سبيل الصلح، فلقد كان خليفته الإسكندر الثانى أكثر اهتمامًا بمصالح روسيا الحقيقية من اهتمامه بمكافحة الثورات فى أوربا.

ولقد عقد مؤتمر للصلح فى ڤينا بالرغم من كل شئ فى ١٥ مارس، وفيه رفض الروس تحديد قوتهم البحرية فى البحر الأسود، واقترح درون دى لوى تفسير نقطة ٣ بحيدة البحر الأسود. وأجل المؤتمر شهرًا ثم عاد إلى الانعقاد فى ١٧ إبريل، ووجد الحلفاء أن روسيا لن توافق على تفسيرهم، وظهر أيضًا أن النمسا ليست مستعدة للدخول فى حرب لفرض هذا التفسير على روسيا، ولكنها أى النمسا وضعت مشروعًا جديدًا بأن يسمح لروسيا بأسطول كبير فى البحر الأسود، وأن يسمح فى نفس الوقت لأساطيل الحلفاء بدخول ذلك البحر. وقبلت الدولتان المتحالفتان ذلك الرأى ولكن زيارة نابليون لإنجلترا ومشورة المارشال فيانت Vaillant بيَّنت له أن قبول أى صلح ليس فى صالح فرنسا.

ولذا فى ٤ يونيو رفض الروس فى مؤتمر ڤينا مقترحات الحلفاء فى تحديد قوات روسيا البحرية فى البحر الأسود. ولذا انفرط عقد المؤتمر؛ ولم تدخل النمسا الحرب انتصارًا لحلفائها.

فشلت الدبلوماسية إذن ، واضطرت إنجلترا وفرنسا إلى العودة إلى الحرب وهاجم الحلفاء سباستبول، فسقطت فى ٨ سبتمر، وبذا انتصرت الدولتان فى حرب القرم ، ولكن الحلفاء كانوا فى حيرة ، كيف يُهاجمون روسيا بعد ذلك ، ولم يكونوا يدرون ماذا ستكون طلباتهم بعد كسب انتصارات أخرى .

فكر الحلفاء فى مهاجمة قواعد روسيا الأخرى فى البحر الأسود والبحر البلطى وحرمان روسيا من شواطئها .

كان بالمرستون لا يرى بأسًا من استمرار لحرب حتى تقهر روسيا تمامًا، ولكن نابليون الثالث كان قد مل الحرب ويُريد استصلاح روسيا. فكر نابليون فى مبدأ الأمر فى إثارة موضوع بولونيا، ولكنه وجد أن إثارة هذا الموضوع سيضم بروسيا والنمسا إلى جانب روسيا، ويُعيد إحياء الحلف المقدس من جديد .

وكان مورنى Morny أحد المغامرين المحيطين بنابليون ، يرى استصلاح روسيا وعقد حلف معها، فحلف مع روسيا سيطلق يد فرنسا فى أوربا ولما علم بول بهذه

المحاولة محاولة التفكير فى عقد حلف روسى فرنسى ، أسرع وقرر أن تفرض النقط الأربع كما فسرها الحلفاء، على روسيا، وقدم بذلك إنذارًا إلى روسيا، وقرر اشتراك الدول الثلاث فى ضمان سلامة الدولة العثمانية وقبل الإنجليز والفرنسيون ذلك الموقف، وفسر بول النقطة الأولى فى صالح النمسا، فتقطع بسارابيا من روسيا، وبذلك تبعد روسيا من مصب الدانوب . وفسرت النقطة الثالثة بحيدة البحر الأسود كما أراد درون دى لوى، فلقد اختفت القوة البحرية الروسية فى البحر الأسود، وقرر الحلفاء أيضًا ألا تكون لتركيا قوة بحرية فى البحر الأسود ببعض التحفظات، وأرسل الإنذار النمسوى إلى روسيا فى ١٥ ديسمبر، وحاول الروس المساومة فرفضها بول فى ٥ يناير ١٨٥٦ ، واجتمع المجلس القيصرى فى ١٥ يناير، وبين ملك بروسيا أهمية التسليم. واقترح الوزير الروسى جورتشاكوف رفض الإنذار النمسوى، ولكن نسلرود رأى عكس ذلك وضرورة قبول شروط النمسا. كانت النمسا تخشى من اتفاق روسيا وفرنسا أن يُصبح الفرنسيون أحرار التصرف فى إيطاليا، وكان هذا الدافع وراء الإنذار النمسوى الذى قدم لروسيا .

وقررت روسيا التسليم وأمضيت مقدمات الصلح فى أول فبراير سنة ١٨٥٦ وبذلك انتهت حرب القرم .

والواقع أن روسيا لم تخسر كثيرا بقبول النقاط الأربع، فلقد دمر أسطولها بالفعل، ولم تعد لها قوة بحرية فى البحر الأسود حتى تُعارض جديًا فى حيادة. وقبل طلبها فى إنشاء سفن صغيرة للأعمال البوليسية فى شواطئها. وبذلك قبلت النقطة التى رفضتها فى ڤينا .

أما مسألة الرعايا المسيحيين فهذه استدعت بعض المناقشة، واتفق أخيرًا على أن يصدر السلطان وعدًا بالفعل على المساوة التامة بين رعاياه المسلمين والمسيحيين .

وأصبحت الملاحة حرة فى كل حوض نهر الدانوب.

ومنحت ولايتا الدانوب استقلالها تحت سيادة Suzerainty السلطان وضم جزء من بسارابيا إليها .

وعادت الحدود بين تركيا وروسيا فى آسيا إلى ما كانت عليه قبل الحرب، وأصبحت تركيا تتمتع بكل الحقوق فى ظل القانون الدولى، واتفقت الدول المتعاهدة على احترام ممتلكات الدولة العثمانية والمحافظة عليها، كما اتفقت إنجلترا وفرنسا والنمسا على أن أى اعتداء على تركيا سيكون معناه دخولها الحرب .

بينت حرب القرم ما عليه روسيا من وهن، فلقد كانت الدول تظن أن روسيا أقوى بكثير من حقيقتها _كانت هذه الحرب غزوا من جانب غرب أوربا لروسيا ولم يعد لروسيا بعد حرب القرم قيمة كبيرة فى مسائل أوروبا، ولم تستعد مركزها فى أوربا إلا فى سنة ١٩٤٥، وتصرف فى مسائل أوروبا دول غرب أوروبا ووسطها .

* * *

أما مؤتمر باريس فلقد افتُتح فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٥٦ تحت رياسة الكونت Walweski ابن نابليون الأول غير الشرعى ووزير خارجية نابليون الثالث .

ومثَّل إنجلترا وزير خارجية إنجلترا لورد كلارندن Clarendon وسفيرها فى باريس لورد كولى . Cowley

ومثَّل النمسا والمجر بول Buol، هبنر Hubner،

ومثَّل روسيا برنس أورلوف Orlov،

ومثَّل سردينيا كافور Cavour،

وأما تركيا فلقد مثَّلها عالى باشا وفؤاد باشا .

ولم تُدع بروسيا إلى حضور المؤتمر إلا بعد افتتاحه، فقد أصرت بريطانية

وقتًا على منعها من الاشتراك، لاتباعها سياسة الحياد، وكان فى هذا إذلالاً ظاهرًا لبروسيا .

وأمضيت معاهدة باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦، ولكن ظل اجتماع المؤتمر إلى ١٦ أبريل ، فلقد تحول إلى اجتماع أوروبى .

وقبل إمضاء المعاهدة أصدر الباب العالى خطاهما بونيا ضمنه حقوق الطوائف المسيحية الموجودة فى الدولة، وأعلن رغبته فى إدخال تنظيمات جديدة، كما أعلن المساومة التامة بين الأديان والجنسيات المختلفة، وأخذ المؤتمر علمًا بهذا العهد .

كان مؤتمر باريس أول مؤتمر أوروبى بعد مؤتمر فيرونا سنة ١٨٢٢، فكل الاجتماعات الدولية السابقة له كانت لحل مشكلة معينة، وأما مؤتمر باريس فقد اجتمع لحل مشكلة الشرق الأدنى لا لحل المشكلات الأوروبية العامة . وفى الواقع بعد ما وافق الروس على الإنذار النمساوى، لم تكن هناك صعوبات بشأن شروط الصلح. وقبل الروس على غير ما يظن البريطانيون حياة جزائر آلاند Aaland ولكن الروس حاولوا الاحتفاظ ببسارابيا على أساس تنازلهم عن ثغر قارس الذى فتحوه عنوة قبل الهدنة مباشرة .

ولكن كان يهم النمسا ألا يحتفظ الروس ببسارابيا ، كما كان من صالح الإنجليز ألا يحتفظ الروس بقارس ، ولكن نابليون الثالث ما كان مهتمًا بالمسألتين بقدر اهتمامه باستصلاح روسيا . ولقد حلت مشكلة العلاقات الروسية التركية فى ثلاثة أمور :

١- فلقد وعد السلطان بالإصلاح.

٢- وأعلن حياد البحر الأسود.

٣- واستقلت الولايتان الدانوبيتان عن حماية روسيا.

وكان فرض حياد البحر الأسود على روسيا أول شرط من نوعه منذ صلح ڤينا بين نابليون الأول وبروسيا فى سنة ١٨٠٧، فلقد اعتبرت إنجلترا وفرنسا فى

ذلك الوقت دولة نصف أسيوية .

وكان أهم شرط فى معاهدة باريس هو تحرير رومانيا، وجعلها دولة مستقلة، وتوقف استقلالها على التنافس والتحاسد بين روسيا والنمسا. وكان على الجيوش النمسوية أن تنسحب منها عقب إبرام الصلح، وأثارت مسألة رومانيا بعض المناقشة عقب الصلح بشأن حدود بسارابيا، ثم نُوقشت علاقة رومانيا بتركيا، هل تظل لتركيا السيادة الإسمية على رومانيا أم لا؟ وفى الواقع عضد استقلال هذه الدولة الجديدة لتكون حاجزة بين تركيا وروسيا ولتقف أمام مطامع النمسا فى السيطرة على وادى الدانوب كله .

وفى أثناء اجتماع المؤتمر حاول نابليون معالجة مشاكل أوربا كمسألة بولونيا واليونان وإيطاليا ولكن الممثل الروسى أرلوف احتج بأن ذكر أن أى شئ عن بولونيا سيجرح شعور القيصر، وسيجعل القيصر يعدل عن الامتيازات التى يفكر فى منحها لبولونيا، وأما فيما يختص باليونان فالجنود التى تحتلها كانت إنجليزية فرنسية، ولذا فلم يكن على المؤتمر مهاجمة الدولتين المنتصرتين وأما فيما يختص بإيطاليا، فكان نابليون يُريد إبعاد الأفكار عن وجود الجنود الفرنسية فى رومه قبل كل شئ .

ولكن الشئ المثير فى المؤتمر كان فى جلسة ٨ إبريل فقد حمل كلاندن حملة شعواء على الحكم البابوى فى رومه، فتعدى بأنه "a disgrace to Europe"، وهو يرمى بهذا، إلى تأييد البروتستانت له فى إنجلترا، ولكن إيطاليا لم تستفد شيئًا من جلسة ٨ إبريل، ولكن هذه الجلسة كانت بالرغم من ذلك خطيرة بالنسبة للنمسا، فلقد وضح أن الدول الغربية لا تؤمن بمهمة النمسا فى إيطاليا، فحكمها أى النمسا كان قائمًا على القوة قبل كل شئ .

وفى ١٥ إبريل أمضت إنجلترا وفرنسا معاهدة للمحافظة على كيان الدولة العثمانية، كما أن الدول المجتمعة فى المؤتمر أعلنت أنها لن تتدخل مجتمعة ولا منفردة بين السلطان ورعاياه، ولا فى الإدارة الداخلية للدولة العثمانية. وإذا قامت صعوبات أو استجدت مشاكل بين تركيا وغيرها من الدول المتعاهدة، فقبل

الالتجاء إلى استخدام القوة يجب الاحتكام إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه المعاهدة، فجعلت مسألة الدولة العثمانية رسميًا مسألة أوروبية .

كانت معاهدة باريس أول معاهدة يوقعها السلطان لا يكون فيها أى انتقاص لممتلكاته أو إضعاف لقوته، لقد جعلت معاهدة باريس لتركيا مركزًا أكثر امتيازًا من ذى قبل، وضمنت على الأقل نظريًا انضمام الدول الأوروبية الغربية إلى جانبها ضد روسيا لحين من الدهر، وجعل أمر استقلالها فى أمورها الداخلية جزاء من القانون الدولى والدبلوماسية الأوروبية . كما دمرت قوة روسيا الحربية عدوة تركيا التقليدية لمدة عشرين عامًا .

ولم تغنم النمسا شيئًا كبيرًا من هذه الحرب - لقد أبعدت حقيقة خطر الروسيا عن مصب نهر الدانوب وشرقى البلقان، ولكنها خسرت صداقة روسيا إلى الأبد، ولقد حاولت النمسا أن تُقنع نابليون الثالث بالاعتراف بالحالة الراهنة فى إيطاليا ، كما اعترفت النمسا بالحالة الراهنة فى الشرق الأدنى، ولكنها لم تنجح فى هذه الناحية، بل سنجدها مضطرة أن تقف بمفردها أمام الفرنسيين فى شمال إيطاليا .

ويرى بعض المؤرخين المحدثين من أمثال تيلور Taylor أن مؤتمر باريس

“Proved a disappointment to all who attended it : only the Prussians who came late and expected nothing had their hopes fulfilled "

فهو يقول إن البريطانيين كانوا يرون أن روسيا لن تستطيع النهوض قبل مرور وقت طويل ، وإن كافور لم يصب أى نجاح فى المؤتمر، فلم يحصل على شئ من الامتيازات التى كان يؤمل فيها نظير اشتراكه فى الحرب، ولم يتغير أى شئ فى إيطاليا، فلم تعامل سردينيا كدولة كبرى، ولم يسمح لها بالانضمام إلى معاهدة ضمان تركيا فى ١٥ إبريل، وسرعان مافتر حماس البريطانيين بالنسبة لايطاليا، بل إنه بعد عام نصحت الحكومة الإنجليزية كافور بأن يخفف من حدة التوتر فى إيطاليا وذلك بأن يُعلن احترام تسوية ڤينا لسنة ١٨١٥ . كما أنه فى ذلك الوقت لم

يكن نابليون الثالث يُفكر فى القيام بحرب لتحرير إيطاليا، كذلك لم يُحقق مؤتمر باريس كثيرًا من آمال نابليون فى إعادة بناء أوروبا. حقيقة كما يرى تيلور أن المؤتمر اجتمع فى باريس تحت إشراف نابليون الثالث ولكن أوربا فى سنة ١٨٥٦ لم تتغير كثيرًا عن سنة ١٨١٥، فكان عجيبًا أن مؤتمرًا يجتمع تحت رئاسة ابن نابليون الأول ولوسكى البولونى من رئاسة ابن نابليون الأول ولوسكى البولونى من ناحية أمه، ولا تثار فيه مسألة بولونيا ولا يعمل فيه شئ لمصلحة إيطاليا.

لم يكن مؤتمر باريس اعترافًا حقيقيًا بالإمبراطورية الفرنسية الثانية، وكل ما نجح فيه نابليون الثالث هو الاتفاق مع إنجلترا، ولكن هذا لم يكن نتيجة لحرب القرم ولا لمؤتمر باريس، فلقد كان ثمن صداقة إنجلترا التخلى عن معظم المشروعات النابليونية فى أوروبا لقد كانت الدولة التى ظفرت بأكبر نجاح حقيقة هى بروسيا، فنظرًا لحيادها فى هذه الحرب ستجد تأييدًا فيما بعد من جانب روسيا على نهر الرين على حساب كل من النمسا وفرنسا .

وبالنسبة لروسيا – لم تعد هذه الدولة كما قلنا تهتم كثيرًا بمسائل أوربا لمدة خمسة عشر عامًا، بل أهملتها إهمالاً يكاد يكون تامًا، لامتهان الدولتين الغربيتين لكرامتها فى البحر الأسود والشرق الأدنى. وكان موضوع البحر الأسود والشرق الأدنى من أهم المسائل التى تعنى بها روسيا منذ القرن الثامن عشر، فأجبرتها إذن الدولتان على التخلى عن مركزها، وأصبح مستقبل روسيا هو فى الإمبراطورية وفى التوسع فى آسيا الشمالية وآسيا الوسطى. واقتصر اهتمامها بالبحر الأسود على الناحية الدفاعية فحسب .

كرست روسيا جهودها كما تقول تعليمات جورتشكوف إلى كسيليف Kiselev إلى إلغاء هذه الشروط فى معاهدة باريس التى تمس البحر الأسود وبسارابيا ولهذا الغرض لم يكن مفر أمام روسيا من أن تعمل على الفصل ما بين فرنسا والنمسا، وفرنسا وإنجلترا. ولم يكن الأمر الأول بالشئ الصعب، ولكن الفصل بين فرنسا وإنجلترا كان أمرًا مستحيلاً، لأن ما كان يُفكر فيه نابليون الثالث هو إعادة

بناء أوربا على أساس اشتراك فرنسا وإنجلترا وروسيا.

لقد كان سفير نابليون فى بطرسبرج مورنى يُؤيد قبل كل شئ فكرة التحالف الروسى وذلك على اساس بغضه للتحالف الإنجليزى، فهو يرى أن تعمل فرنسا على أن يكون لها المركز المالى الأول فى أوربا، ويظهر أن مورنى أعطى الروس أملاً أكثر من اللازم فى تأييد فرنسا لهم، فحاولوا التملص من تنفيذ المعاهدة، ولكن إنجلترا أجابت على محاولة روسيا تلك بإرسال أسطولها إلى المياه العثمانية فتراجعت روسيا، وحاولت أن تطلب من نابليون حمايتها ضد النمسا وانجلترا، ولكن نابليون كما بينا لم يكن يستطيع التخلى عن صداقة إنجلترا، وإن كان ميالاً لمغادرة صداقة النمسا .

وفى الوقت الذى كان فيه مورنى يعمل على إنشاء تحالف روس فرنسى، كان السفير الفرنسى فى لندن پرسنى Persigny يعمل على تقوية دعائم التحالف الفرنسى الإنجليزى، ويُحذر نابليون من عواقب سياسة كسياسة لوى فيليب ونجحت مجهودات السفير الفرنسى فى لندن فى منع نابليون من عقد معاهدة سرية مع روسيا، ضد إنجلترا .

ولذا تخلى الروس عن تأييد نابليون الثالث فى حربه مع النمسا فى إيطاليا لقد أظهر الروس فعلاً لنابليون عدم موافقتهم على سياسته الإيطاليا .

لم يكن مؤتمر باريس قد وافق على مسألة توحيد الولايتين الدانوبيتين، ولم يفد إخلاص نابليون لفكرة القومية أمام خشية تركيا ضياع صلة الولايتين الأسمية بها. وأيدت النمسا تركيا فلقد كانت فينا تخشى قيام دولة موحدة بجانب ترانسلفانيا ، ولكن روسيا أيدت اتحاد الولايتين ولو أنه فى غير صالحها، وأيدت إنجلترا التقسيم، فستراتفورد لم يكن مستعداً للعمل على انحلال الدولة العثمانية. وأقتنع برسنى نابليون الثالث بأن ليس من مصلحة فرنسا العمل على انحلال تركيا الأوروبية، وأخيراً فاز رأى إنجلترا وتركيا ولكن سكان الولايتين قرروا فى سنة ١٨٥٩ الاتحاد .

ويظهر أن السلطان لم ينفذ وعده بخصوص تحسين مركز رعاياه المسيحيين

وأما حيدة البحر الأسود فلقد استمرت إلى سنة ١٨٧٠ .

وأما بسارابيا فلقد عادت لروسيا فى سنة ١٨٧٨ .

وأما حماية الدولة العثمانية فلم يهتم بها أحد بعد ذلك بل هوجمت الفكرة نفسها فى السنة التالية.

بينما ستنفذ بالتدريج السياسة التى أشار إليها نيكولاس، فلقد احتلت إنجلترا قبرص ومصر فى سنتى ١٨٧٨ ، ١٨٨٢، ولكن ما أخطأ فيه نيكولاس هو إنشاء دول بلقانية تحت حماية روسيا، فهذه الدول ستعمل على التحرر من النفوذ الروس القيصرى، ولم تستطع روسيا الاقتراب من الأستانة، ولازالت مشكلة المضايق مشكلة باقية إلى الوقت الحاضر .

وهنا يحسُن أن نُبدى بعض الملاحظات العامة على ظروف أحاطت بحرب القرم . فالقيادة للمحاربين لم تكن بذات كفاية ، فقائد الحملة الإنجليزية راجلان Raglan كان قد بلغ من الكبر عتيا، وترك الخدمة العاملة مدة أربعين عامًا. وكانت سنه خمسة وستين عامًا . هذا فى الوقت الذى كان فيه قائد الحملة الفرنسية مريضًا على وشك الموت .

كذلك لم تكن القيادة الفرنسية أو الإنجليزية لتدرى هدفها الحقيقى من الحرب. فكانت لديها فكرة غامضة عن منع الروس من احتلال القسطنطينية وطردهم من ولايتى الدانوب - كيف ذلك ؟ لم يكن أحد فى إنجلترا وفرنسا فى الهيئات الحكومية يعرف جوابًا نهائيًا لهذا - وكانت معلومات الحلفاء عن تحصينات الروس وقواعدهم فى البحر البلطى أو الأسود أو قواتهم العسكرية لاتكاد تكون شيئًا. ولم يكن هناك تناسق بين الخطط الحربية حتى ولا فى أذهان رجال الحرب، وكانت نتيجة هذا أن قاسى جنود الحلفاء ويلات ومحنا كبيرة فى منطقة بلغاريا، لا سيما مرض الكونوا والملاريا هذه الأمراض التى فتكت بجنودهم فتكا ذريعًا. وخاصة وأنه لم تكن هناك ترتيبات صحية أو طبية كافية أو

شافية. كذلك كانت وسائل النقل نقل الجنود سيئة للغاية مما عطل وعرقل الأعمال الحربية، وربما كان معنى التأخير بقاء الجنود شتاء آخر، بما يعنيه الشتاء الروسى من برد وثلوج، لجنود ليس لديهم الغذاء أو الكساء الكافى الذى يقيهم زمهرير البرد. كذلك حين هاجم الحلفاء سباستبول كان لايزال أمامهم طريق طويل إذا أرادوا الوصول إلى قلب روسيا وضربها ضربة قاضية .

وكانت الوزارة البريطانية (وزارة أبردين) حائرة ضعيفة مترددة منقسمة على نفسها، لا تعطى لقيادتها الحربية التأييد الكافى أو التعليمات الواضحة ، وكانت التعليمات تصل فى كثير من الأحيان متأخرة عن الوقت المناسب، ولم تكن الصحافة البريطانية لتسهل موقف الحكومة أو قيام الحكومة بواجبها، وكثيرًا ما أفشت صحيفة التيمز الأسرار الحربية البريطانية على صفحاتها هذه الأسرار التى كان يتسنى عدم إفشائها.

كذللك لم تكن لدى الحلفاء وخاصة الفرنسيين، السفن اللازمة لنقل جنودهم وتموينها فلقد ازدحم الجنود الفرنسيين على سفنهم بشكل عطل عمل السفن عن الناحية الحربية ، ثم كان هناك الخلاف المستمر بين القيادتين الإنجليزية والفرنسية (بين راجلان وسانت أرنو) . وبالرغم من قوة روسيا وفرنسا الحربية فلقد كان عدد الجيوش التى خاضت المعركة قليلاً، فالجيش الروسى فى شبه جزيرة القرم لم يكن يتجاوز ثمانين ألف منهم خمسون ألفًا من الجنود العاملين، والجيش الفرنسى ٣٠ ألفًا، والإنجليزى حولى ٢٦ ألفًا وخمسة آلاف من الأتراك، وكان الروس يستطيعون تحصين مواقعهم وقاعدتهم فى سباستبول بسهولة بالرغم من وجود قوات الحلفاء فى القرم .

ولم يكن الجيش الإنجليزى الذى خاض غمار حرم القرم مدربًا على أمور الحرب فلقد مر عليه أربعون عامًا لم يشترك فيها فى حرب . ولم يكن تموينه خيرًا من تدريبه ، ولكن هذه الحرب بالرغم من ذلك أثارت اهتمام الرأى العام البريطانى للآلام الكثيرة التى قاساها الجنود خلال هذه الحرب .

كانت الحياة الجندية الإنجليزى رخيصة قبل ذلك، وظلت رخيصة إلى حد ما، ولكن الرأى العام أخذ يعرف عن الحرب وأهوالها وظروفها الشئ الكثير، فكانت أول حرب ذهب إلى ميادينها مراسلوا الصحف، وأرسلوا بتقاريرهم إلى صحفهم، كذلك كانت الخدمة البريدية خيرًا من ذى قبل، وأخذ ينموا وعى الرأى العام وانتقاده لأعمال الحكومة وإدارتها للحرب، ومسائل نقل الجنود وإيوائهم وتسليحهم وتموينهم والعناية لصحتهم، وكان الرأى العام قد نسى فى الواقع الحرب السابق، فآخر حرب خاضتها إنجلترا كان قد مر عليها أربعون عامًا . وازداد الاهتمام بقيمة الحياة الإنسانية .

شعر الرأى العام الإنجليزى بأن الحرب لم ينلها تطور حقيقى يخفف من ويلاتها وبؤسها، ولم يعمل رجال القيادة العامة الإنجليزية شيئًا فى هذه الناحية فلم يعنوا بمسائل التدريب، بل ونسوا كثيرًا من خبرات الحروب الماضية، ووجه بعض اللوم إلى البرلمان الذى لم يهتم بأمور الحرب إلا من ناحيتها المالية. ولم يوجه أية عناية إلى تحسين حالة الجندى .

فلقد كان السجين المجرم يعامل خيرًا من الجندى، وكان كثيرًا من الجنود يهلكون لسوء معاملتهم وعدم تحسين أحوالهم. فلم يهتم بملبس الجندى ولا غذائه ولا مشربه ولا مسكنه ولا معاملته كإنسان من حيث مسائل التسلية والترفية، فانتشر بين الجنود السكر والأمراض المعدية والسرية. ولم تكن كفاية الضباط خيرًا من كفاية الجنود، فكان ضباط المشاه والفرسان يشترون وظائفهم ودرجاتهم العسكرية، وأيد هذا النظام ولنجتن ورجلان، ولم يلغ ذلك النظام إلا فى ١٨٧١، وكان الضباط يؤخذون من طبقة خاصة، قد تخرجوا من المدارس الخاصة، واقتصر تدريبهم على دروس اللغة اللاتينية واليونانية والحساب .

They were content to be gentlemen and to leave the technical questions to those who were not gentlemen .

وكان الجنود يوزعون للقيام بأعمال بوليسية فى وقت السلم، فلم يكن نظام

البوليس بشكله الحالى قد وضع بعد.

ولم تكن المسؤلية الخاصة بالأمور الحربية قد نُظمت بعد، فكان يتولاها وزير الحربية ووزير المستعمرات، ولم تعين حدود مسئولية كل منهما، وكذا كان الشأن فى الوظائف الحربية الأخرى، وكان المتطوعون تحت إشراف وزارة الداخلية. وأما مسائل التموين والنقل الحربى، فكانت تحت إشراف وزارة الخزانة.

واهتمام البرلمان بالنواحى المالية فقط ساعد على إهمال أمور الجيش وعدم تطور نُظمه وكان معظم ما يُطلب قبل هذه الحرب (القرم) للجيش هو زيادة عدده وكانت مثل الطلبات تُلاقى معارضة شديدة بالرغم من زيادة مسؤليات إنجلترا الحربية كأولى الدول الاستعمارية.

ولقد كانت بروسيا أكثر الدول استفادة من هذه الحرب. وهى دولة لم تشترك فى حرب القرم كما رأينا ، فلقد تأكد بسمرك أن ليس لدى إنجلترا جيش قوى تستطيع إنزاله من سفنها الحربية، ولذا لم يعبأ كثيرًا بتهديد إنجلترا فى مسألة شلزفيج هلشتين حين هددت إنجلترا بإرسال قوة لمساعدة الدنمرك .

ومع هذا حاولت الحكومة الإنجليزية نتيجة لحرب القرم ولما قاساه جنودها من ويلات. ونتيجة لاهتمام الصحافة والرأى العام بحياة الجنود ، عملت على زيادة الاهتمام برجال الجيش، بالنواحى الصحية ودراسة الأمراض التى يتعرض لها الجنود، وبإنشاء المستشفيات الحربية ، وكان لمس ينتنجيل Nightingaie أثر كبير فى هذه الناحية، كما بدأ الاهتمام بتنظيم مرتبات للجنود وإعداد وسائل التسلية والترفيه والتثقيف لهم .

ولم تكن أمور البحرية البريطانية قبل هذه الحرب لتجد عناية كبيرة من البرلمان. إذ كان كل مايهم البرلمان هو الاقتصاد فى النفقات بقدر المستطاع ، فلم يهتم البرلمان كثيرًا بأحوال رجال البحرية بعد انتهاء الحروب النابليونية، وسرح كثير من رجالها ، كانت البحرية الإنجليزية تتكون من الضباط والبحارة والسفن، وكان الضباط يجمعون البحارة من الموانى والثغور، وفى كثير من الأحيان من

المهربين والمجرمين واللصوص والمساجين التى تُريد السجون أن تتخلص منهم.

لم تتطور البحرية كثيرًا فى المدة السابقة لحرب القرم ، ولم يكن هناك تدريب منظم بالمعنى المعروف فى الوقت الحاضر ، ولكن على أى حال كانت حال البحرية أحسن من حال الجيش ، وأنشئت كلية بورتسموث للتدريب فى أمور البحر منذ ١٨٣٠ .

ولو أن وزارة البحرية Admiralty كانت أحسن تنظيمًا من وزارة الحربية ولكنها ما فتئت تشكو من نُظم الروتين العتيقة، والاقتصاد المبالغ فيه. وفى سنة ١٨٤١ كان سن معظم ضباط البحرية أكثر من سبعين عامًا، ومعنى هذا عدم الاهتمام بتدريب جيل ناشئ. واشتكى أحد كبار رجال البحرية من قذارة رجال البحر الإنجليز (إلى وظيفة كابتن) وكانت المعارضة شديدة أمام كل تجديد أو تغيير. وخاصة حين فكر فى صنع السفن من الحديد.

ثم حدث تطور كبير فى بناء السفن فأخذ إنشاء السفن الحديدية . وخاصة

السفن الحربية، وبدأ ظهور المدرعات .Ironclads بدأت إنجلترا فى ذلك فى سنة ١٨٥٨ . لقد أنزلت فرنسا أول سفينة حربية حديدية وهى La Gloire فى سنة ١٨٥٩ قبل ان تنزل إنجلترا سفينتها The Warrior ، وخدمت الحرب الأهلية الأمريكية تجربة بناء السفن من الحديد . ولم تصنع سفينة كبيرة من الخشب بعد ١٨٦٦ . فكان ذلك تطورًا هامًا فى الحرب البحرية .

بعض المصادر والمراجع

The Vienna archives

" French archives

F - O - Fr

" Russia

" Austria

F . O . 78 Torkey .

Lord Eversley : The Turkish Empire 2 nd ed . 1923 .

W . Miller : The Ottoman Empire & Its Successors 1927 .

N. Yorga Geschichte des Osmanischen Reiches . Gotha 1913 .

Bulwer : Life of Palmerston .

V . Y . puryear England Russia & the Straits convention .California 1931 .

Hansard Parliamentary Debates .

Webster : Foreign policy of Castlereagh .

Herstlet : Map of Europe by Treaty .

Ernest Molden : Die Orientpolitik Metternichs 1829 - 37) Wien 1913 .

N. Dodwell : The Founder of Modern Egypt .

The Russell correspondence

2 vols edited by yooch 1925

Mosely , p. E. : Russian Diplomacy & the Opening of the Eastern Question 1838 - 39 . Harvard 1934

A . Ubicini : Letters on Turkey 2 vols . 1856

Lane-pool,l Stratford Canning .

Sir A . H . Layard : Auto biography & letters 1903 2 vols .

Ed . Engelhardt : La Turquie et le Tanzimat . 1882.

R. W. Seton-Watson : The Southern Slav Question & the Hapsburg Monarchy 1911 .

Schmitr B. L : Diplomatic Preliminaies of the Cremean Am . His Rev XXV . yan 1919 .

Hubner : Neuf ans d, un ambassadeur a paris 1904 .

Vitzthum von Eckstadt : Embassy at st . petesturg & London , 2 vols , 1886 .

C, Kingsley Martin : the triumph of lordpalm eston 1924

kinglake : Invasion of the crimea

H, E, Howard : Cam, hist, T, oct 1936

عن برنو وأبردين

L, Thouvenel : Nicholas et Napoleon paris 1891

E, Bapst : les origines de la Guerre de Crime 1848 - 53 Paris 1912

H, Temperle, the Crimea.